جائزة الشارقة للإبداع العربي
الإصدار الأول | الدورة 12 | 2008
215
الثاني في مجال الرواية

جبل حالية

مدونة ابو عبدو

إبراهيم مضواح الألمعي

جبل حالية

جبل دالية

رواية

إبراهيم مضواح الألمعي

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة 2009 م

الناشر: دائرة الثقافة والإعلام
حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5671116 6 971+
برّاق: 5662126 6 971+
بريد اليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

الطبعة الأولى 2009
حقوق النشر والطبع محفوظة

٨١٣.٠٣٩٥٣١ إبراهيم مضواح الألمعي
أ م ج جبل حالية/ إبراهيم مضواح الألمعي.- الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٩.
١٩٦ ص:٢١ سم.- (جائزة الشارقة للإبداع العربي في مجال الرواية ٢٠٠٩)
الكتاب الحاصل على الجائزة الثانية في مجال الرواية
١- القصص العربية - السعودية أ- العنوان ب- السلسلة

ISBN: 9948-04-567-X
ISSN: 9948-04-103-8

(1)

تمر به لحظات سكون لم يتذوقها من قبل. برودة التراب تلامس خده. يفتح عينيه. يحدِّق في الفضاء الذي يفصل وجهه عن الجدار الترابي أمامه. يتمنى لو يستطيع أن يمدَ يده فيلمسه. لم يحاول فهي لا تستجيب لرغباته. عيناه فقط تستجيبان، غير أنهما لا تجديان شيئاً في هذا الظلام الدامس.

يستطيع عمرُ السَّوْرَجي تحديدَ الاتجاهات بسهولة، فالتراب تحته، ووجهه إلى القبلة. وبوسعه توقُّعُ المدى الذي يفصله عن بقية الجهات. لا تساعده رقبته على الالتفات. يدير عينيه فلا يرى إلا السواد. كم يخشى أن تكون عيناه منطفئتين برغم حركة حدقتيهما.

ليس سيئاً البقاء في هذا الوضع، برغم شعوره بشيء من الملل يتسرب إلى نفسه. كان يتمنى أن يجد الوقتَ والمكان اللذين يمنحانه حرية التأمل والتفكير في هدوء فلا يجدهما. ذهبتْ أيامه بين قيود الوظيفة، ورعاية الأطفال، والحزن على الأمس، والخوف من الغد، والصخب الذي يغتال كلَّ اللحظات. ما أحلى

الهدوء! ليت بوسعه أن يتمدد على ظهره وينظر إلى أعلى. البقاء على جنبه الأيمن طويلاً وضع لا يريحه. لا بأس فهذا ثمن الهدوء الذي لا عهد له به، حتى في أيام إجازته لم يكن ينعم بهذا الهدوء، فصخب الأولاد وطلباتهم ليس لها إجازة. يستطيع الآن أن ينام دون أن يوقظه أحد. يحتاج فقط إلى وسادته الرمادية، فالنوم عليها له مذاق مختلف. كان عليهم أن يضعوها تحت رأسه، عندما أودعوه هذه الحفرة. كان يجب على زهرة أن تطلب منهم ذلك، فهي الوحيدة التي تعرف أنَّه لا يستطيع النوم من دونها.

لا بُدَّ أنها انشغلت بالبكاء عليه، هكذا قالت له في ساعة رضا:

– سأبكي عليك كثيراً عندما تموت.

– ربما تموتين قبلي!

– أنتَ أكبر مني بعشرين سنة.

– العمر ليس المعيار الوحيد.

– ولكنه أحد المعايير المهمة.

– هل تنوين الزواج بعدي؟

– جربتُ حظي مرةً ولن أكررها.

– تجربتنا واحدة، وأظنُّ النتائج لا تختلف كثيراً.

انتهتْ ساعة الرضا، وبدأت الشكوى من عشرته المسكونة

بالقلق، وربيع العمر المسفوح بلا ثمن، وهناء الحياة الذي تعيشه نساء الدنيا باستثنائها. لم يهتم لقولها فقد حفظ كل ما قالتْ، وما تنوي قوله. غير أن نبوءتها صدقت، عندما تحكَّم معيارُ العمر في بقية المعايير. خمسون سنة كافية لتجربة الحياة والاغتذاء من خيرها وشرها.

ولد عمر السورجي في ليلة ماطرة؛ يتسرب الماء عبر الجدران المتصدعة، والنوافذِ المُخلَّعة، ومن تحت الباب الخشبي العتيق. دفعتْ أمُّه حياتها ثمناً لعبوره إلى الحياة. كان ثمناً باهظاً لحياة لا يراها تستحق هذه التضحية. برغم تشبُّثه برحم أُمِّه ورفضه اقتحام الحياة، لم يفلح في تفادي هذه التجربة، التي لم يرضَ عن مقدماتها، ولا نتائجها.

قال له أبوه في إحدى نوبات الربو التي تعتاده منذ الصغر: لا عجب يا ولدي من وَهَنِ رئتيك، فقد وضعتُك بلا شعور في مستنقع الماء عندما ناولتني إياك جدتك (فضَّة) وأنا أرى أمَّك تصارع الموت. عندما التفتُّ إليكَ وجدتُكَ تتلوى خلفي، وقد غمر الماءُ والطينُ جزءاً من جسدك الصغير. كانت ليلةً بائسة؛ اجتمعت فيها الصواعق، وكآبة الليلة المطيرة، وكرب الولادة، ثم كساها الموت بوحشته؛ وأيُّ حُزنٍ أعمق من حزني على المرأة التي كانت عوناً لي على متاعب الحياة.

– لا بُدَّ أنك كرهتني، لأني سبب موتها!

– بقيتَ تُذكرني بلوعة فراقها زمناً، ثم سلَّمتُ لقدر الله، ورضيتُ بقضائه.

ولد عمر السورجي أيام العدوان الثلاثي على مصر. عرف ذلك بالصدفة، عندما حدثه أبوه عن ليلة مولده، وأن عمَّه أحمد، أصر على تسميته (جمال)، فقد شغل خطابُ جمال عبد الناصر عن تأميم القناة كلَّ المحطات الإذاعية. ولكن أباه أصرَّ على أن يحمل اسم جده(عمر) فهو لا يعرف قناة السويس، ولا (ديلسبس) كلمة السر التي أوردها عبد الناصر في خطابه الشهير. بخلاف عمِّه أحمد، الموظف في المدينة الذي كان متأثراً بإذاعة صوت العرب، وما تبثه من خطب عبد الناصر. ولما عجز عمُّه عن تسميته بما يريد سمَّى أولَ مولودٍ رُزِقَهُ (جمال)، وكَنَّاه الناس (أبوجمال).

كان تأميم القناة انتصاراً تغنَّى به العرب، برغم الأخطار التي أحاطت بالمنطقة بسببه، وبرغم أن هناك من يعتبره مجازفة لا ضرورة لها، لأن الاتفاقية مع الإنكليز كانت ستنتهي بعد اثنتي عشرة سنة؛ فما ضرورة المجازفة، لتحقيق ما سيتحقق تلقائياً؟!

العُرْفُ يقتضي إطلاق الأعيرة النارية لِمَقْدِمِ الصبيان، ولكن موت أم عمر، ملأ (السورجة) حزناً، لا يمحوه الفرح الذي يمكن أن يجلبه أطفال الدنيا مجتمعين. لم تُطلَق لمولد عمر طلقةٌ واحدةٌ، وذاك نذير شؤم المولود كما تعتقد جدته فضَّة؛ فقد كانت تنبزه في أوقات غضبها عليه بالمشؤوم.

(2)

تولَّتْ (فضة) جدة عمر رعايته، برغم أنها ليستْ أم أبيه، غير أن استعدادها لحضانته وقبولها بذلك أعفى أم أبيه (حالية) من عناء رعايته. احتضنته بأمومة صادقة، ولكنه لم يشعر يوماً بأنَّها أمَّهُ. يحسدُ كلَّ الذين لهم أمهات، حتى أطفاله؛ لأن أمهم بينهم، تعابثهم، وتحنو عليهم، وتضربهم أحياناً. لم يجرب حنان الأم، ولا قسوتها. برغم أمومة جدته فقد كان يعتبر خسارته بفقدان أمِّهِ فادحة، فجدته تقول: إن أمَّهَ كانت امرأةً عظيمةً، عطوفاً، طيبةَ القلب، تحنو على كلِّ الناس. لما كانت تعجبها بعض تصرفاته، فإنها تذكِّرُها بأخلاق أُمِّه، وكذا أبوه مازال يذكرها ويثني على مروءتها، وحسن عشرتها، أمام زوجته، فيطرق عمر ولا يقول شيئاً.

لم يشعر عمر يوماً بالرضا عن نفسه، فهو يعتقد أن الذين يعتني بهم غيرُ أمهاتهم لن يعيشوا أسوياء، ظهر ذلك في حساسيته المفرطة التي جعلت جدته فضة تُصرُّ على تأجيل دخولِهِ المدرسة، حتى بلغَ التاسعة. وعندما أخفقَ في الصف

الأول، قالتْ لأبيه: لو اشتغل بالرعي والحرث لكان أنفع له. كان ذلك سبب إصراره على النجاح في السنة التالية، فهو لا يحب الرعي ولا الحرث، وجسده الهزيل لا يحتمل مشقتهما. كان لا بُدّ أن ينجح.

في الطابور الصباحي يقف عمر في مؤخرة الصف. يتراجع خطوات حتى لا يظهر الفرق بينه وبين الطفل الذي أمامه، فطوله يكشف أن مكانه في الصف الثالث لا الأول. لم يكن يحب الطابور الصباحي، ولا يحب جميع الطوابير، تشعره الطوابير بالمهانة دائماً. في المدرسة علّموه كيف يقف في الطابور قبل أن يعلموه الأبجدية. وعلموه الوقوف في طابور آخر لكي يسد رمقه بالوجبة الغذائية. الطابور الأكثر إيذاءً لنفسه هو طابور التفتيش، حين يمدُّ يديه مفرودتي الأصابع، ليمُرَّ المعلم الذي يصبح في يوم التفتيش جلاداً. قليلون الذين ينجون من ضربات المسطرة على ظهور أيديهم، وأكثر الذين نجوا تمكنوا من قرض أظفارهم بأسنانهم قبل أن يصلهم الدور. ولكنهم قد لا ينجون من عقوبة طول الشعر أو عدم نظافته، فيشدُّه المعلم في كلِّ الاتجاهات.

في الجامعة طابور المكافأة الشهرية أهم بكثير من طابور شراء المذكرات. طابور المكافأة يمتد كالأفعى في الممرات، والدهاليز، لا يعرف الواقفُ فيه كم عدد الواقفين أمامه. اقترب عمر مرة من المحاسب، كان شاباً تبدو عليه سيما التَّدَيُّن. تململ عمر في مكانه بينما كان المحاسب الشاب يعتذر لمحدثه على الهاتف عن لقائه، لانشغاله بدروس العلم قبل المغرب، وبعد

المغرب، وبعد العشاء. لم يندهش عمر لذلك فكثيرون ينهمكون في الدروس طوال الليل والنهار، ولكنه خجل من نفسه فقد ترك محاضراته ووقف ساعات في الطابور من أجل عَرضٍ زائل. تلاشى خجله عندما علم فيما بعد أن طالب العلم ذاك كان يختلس من المكافآت التي تحت يده.

عندما أصبحَ عمر مُعلماً صارَ كأكثر الموظفين يُقَدِّمُ شهراً من عمره قرباناً للراتب الذي يعيش به بعضَ الشهر التالي، قبل أن يقف من جديد في طابور طويل.

أعتقه الصراف الآلي من تسوُّل المحاسبين راتبه كل شهر. أصبح بإمكانه أن يأخذ راتبه دون أن ينظر إليه الصراف الآلي نظرة حسدٍ أو منَّة، ودون أن يحتاج إلى أن يقول له شكراً، تلك الكلمة التي يقولها مكرهاً للمحاسب عندما يُسَلِّمُهُ راتبه.

قرأ عمر عن احترام الأمم المتحضِّرة للطابور، وأن الكلب هناك يحمل السلَّة بفمه، ويقف في الطابور لا يتقدم أحداً، ولا يتقدمه أحد، حتى يصل البائع، فيأخذ ما في السلة، ويضع السلعة المطلوبة في السلة. ربما اختلقنا الطوابير لنقلدهم في احترام الدور، فملأنا الدنيا طوابيرَ ولم يحترمها أيٌّ مِنَّا. كيف يمكن أن تحترم شيئاً يُشعرك بالمهانة؟!.

بعد أن تعرَّض عمر مراتٍ عديدة لتقدم الأقوياء والبجحين في خضمِّ الفوضى، وأصحاب الوساطات، والعلاقات، والوجوه المألوفة، بدأت نظرته للطابور تعتدل قليلاً. ولكنه مايزال يعتقد أن الطوابير للبسطاء والفقراء والمساكين، فهم كثيرون

ويزدحمون على موارد قليلة، بينما الآخرون لا يحتاجون إلى الطوابير فمواردهم أكثر مما يحتاجون بكثير.

في مرقده هذا سيستريح من الطوابير التي يمقتها. ولكنه يُشفقُ على أولئك الذين مازالوا يقفون في طوابير الجمعيات، والبنوك، وأمام أفران التميس، طوابير.. طوابير.. طوابير.. تفوح من أجسادهم رائحةٌ عطنة، يستنشقونها بقرف، ولا يتخلَّون عن مواقعهم. كثيرة هي الطوابير التي وقفها عمر دون أن يصله الدور.

اكتشف عمر السورجي قبل مغادرته بوقتٍ وجيز أنه كان يقف في طابور دائري؛ يقف أولُه عند منتهاه، وبقي يدور فيه سنواته الخمسين. لن يقف في طابور مجدداً، سيبقى مسترخياً هكذا، ولكنه يخشى أن يستولي عليه الملل، يتمنى لو أن وسادته الرمادية تحت رأسه. كم يحنُّ إليها، بل يحتاج إليها أكثر من أي وقتٍ مضى.

(3)

يراوده الأمل أن يلقى هنا آسية؛ رفيقة طفولته في السورجة. شاركته مع أخيها نافع بؤس الطفولة وبراءتها، ولذتها. تجمعهم الحقول، وظل الشجر، ودروب السورجة. الثلاثة عانوا الحرمان من رعاية الأم. فَقَدَ نافع وآسية أمهما أيضاً بعد ولادة آسية بشهور، عاش الثلاثة طفولتهم طلقاء، فلا أمٌ ترقب تحركاتهم. وأبواهم تشغلهما الحياة وضنك العيش عن متابعتهم، ما يتيح لهم أن يقضوا سحابة النهار معاً، يعبثون ويلعبون، يختلفون وسرعان ما يصطلحون. دخل عمر ونافع المدرسة، فانفصلا جزءاً من الوقت عن آسية. تطلب منهما كتبهما فتنظر في الصور، ويعجزان عن تفسير كثيرٍ مما تسأل عنه. يحرص عمر على أن تراه يحمل حقيبته في طريقه إلى المدرسة، أو قادماً منها. يشعر بزهو وهي تنظر إليه، أو تلوِّح له بيدها. في بعض الأماسي يجلس عمر ونافع حول الفانوس يذاكران ويحلاَّن واجباتهما، بينما هي تنظر إليهما. يقرأ لها عمر التعليقات على صور كتاب الهجاء، فتعجب لهذه اللغة التي يستطيع الكتاب إيصالها إليه. طلبتْ منه مرةً أن يكتب اسمها؛

كان طلباً مباغتاً، ولم يكن بوسعه الاعتراف بعجزه، فلم يدرس اسمها ضمن ما درس من أسماء. وضع الدفتر على الأرض، وتمددَ على بطنه وبدأ يكتب وينطق اسمها حرفاً حرفاً: كان حرف المد في أول اسمها أول معضلةٍ واجهته. كتبه بعد مشقة، وقد استعاض عن المد بهمزة، وعن تاء التأنيث في آخره بألف، فولد الاسمُ مشوهاً (أسيا). فَرِحَتْ وهي ترى اسمَها على الورق لأول مرة، ملأه الزهو وهي تنظر إلى اسمها.

لشدة فرحته بهذا الإنجاز نسيَ كتاب الهجاء في المكان الذي اخترعَ فيه كتابة اسمها، وجاءت بقرة المطوِّع فأكلت جزءاً منه، وأدركَ جزءاً. كانت فاجعة حرمته النوم تلك الليلة، ولم يكن يشاركه الهم أحدٌ، فلم يجرؤ على إبلاغ أبيه بهذه الكارثة، فسيضربه عقوبة إهماله قبل أن يسمع تبريراً لما حدث، وعندما وشتْ به أخته في اليوم التالي، قال أبوه وهو يقلِّبُ ما بقي من صفحات الكتاب: كيف تترك كتابك علفاً للبقرة يا بقرة؟! وهوى بيده على وجهه، ثمَّ ألقى الكتاب بين يديه وذهب. لم يسأله بعد ذلك، كيف تدبَّرَ أمره في المدرسة؟ وتلك حكايةٌ أخرى؛ فكيف يبرر للمعلم الشامي الأنيق، ذيْ العيون الزرقاء التي تتحول إلى حمراء عندما يغضب، كيف يشرح له الأمر، لن يفهمه، فهو شابٌ متحضر، وربما لا يعرف ما هي البقرة، التي يحدِّثه عنها، وسيضربه لا محالة. في حصة القراءة جعلَ الجزء المأكول لأسفل، وفتحَ الكتاب على صفحة نظيفة، لا علاقة لها بالدرس، ومضت الحصة ثقيلة، ومقلقة للغاية، ولكنها انتهت بسلام. شجعه ذلك على أن يستمر على هذه الحال بقية شهور الدراسة.

مضت الأيام دون أن يشعر المعلّم بذلك. بقي عمر زمناً يعاني من ضعف القراءة، بسبب انشغاله في حصص الهجاء بإخفاء الصفحات المأكولة. بعد ذلك بسنوات كتبتْ اسمها على دفتره، وقالت له:

– هكذا يُكتب اسمي؟

– صحيح.

– ولكنَّكَ كتبتَهُ لي زمان خطأ.

– أمازلتِ تذكرين؟!

– ولاتزال الورقة عندي.

– حرام عليكِ، كنتُ وقتها في الصف الثاني.

وجد في ذلك مدخلاً مناسباً، ليعرف رأيها في عزمه الالتحاق بالجندية ليتقدم لخطبتها من والدها. لم يكن جاوز السابعة عشرة، وهي تصغره بثلاث سنوات، وإن بدا جسدها مكتمل الأنوثه، كان والدها إمامُ السورجة، وعمدتُها، رجلاً طيباً يعطف على عمر، ويرحِّب بمرافقته لنافع، وكذا زوجته الطيبة. زاد على ذلك حُبُّه لآسية التي أصبحَ يرى الوجود بعينيها البريئتين؛ فبوسعه التردد إلى بيتهم في أي وقت، ولا يستنكره أحد، حاولتْ أن تكتم فرحتها وتأييدها للفكرة.

– بدري على هذا الكلام.

– أخاف أن يسبقني إليك أحد.

– هل ترى الخُطَّاب يتزاحمون على الباب؟

– هل ستنتظرين حتى أجد وظيفة.

– سأنتظرك طول العمر.

اندفع عمر جهتها وتذوق لأول مرة في حياته قبلةً ارتعشت لها كلُّ خلايا جسده، واحمر وجهها. وبينما كان في ذهوله اختفت بسرعة، وبقي يتلمظ أثر تلك القبلة التي عمَّقت شعوره تجاه آسية. تساءل عمر: هل أغضبتها بفعلتي هذه؟! ولكنها لم تبتعد عني، ولم تدفعني!!

(4)

تمنى عمر السورجي مع وسادته الرمادية، أن يعرف كم الساعة الآن؟ ثم يتساءل وما الحاجة إلى معرفة الوقت؟! كل الساعات هنا سواء!! يعتقد أنَّه سيجد في معرفة الوقت تسليةً؛ فلو عرفَ الوقت لاستطاع توقُّعَ ما يفعله الأولاد، إذا كانت الساعة السابعة صباحاً، فهم يُعِدُّونَ حقائبهم للمدرسة، ليركضوا ببراءتهم فيُعْتَقلون في أقفاص مدرسية نصف نهار. يتعاقب على حراستهم معلمون، يدخلون الصفوف بتثاقل، ثم ينتظرون الجرس كالمساجين. يبددون براءة الصغار، ويستبدلونها بعقدهم وإحباطاتهم، حتى إذا قُرِعَ الجرسُ خرج المعلمون من الأقفاص، كالمفرج عنهم، وخلَّفوا وراءهم الصغار.

يعتقد عمر أن كايوسكي كان محقاً حينما قال: «إذا أردتَ أن تكون غنياً وسعيداً لا تذهب إلى المدرسة». تألَّم كثيراً لحال الطلاب. تمنى لو كان غنياً ليستقدم لأبنائه معلمين يعلمونهم وفق برنامج يضعه هو، ويشرف عليه؛ فلم تعد المدارس كما كانت.

برغم إيمانه بمبدأ أبي العلاء، في عدم الإنجاب، إلا أنه عجز عن تطبيقه، عندما وافقت رغبته في الزواج إلحاح من حوله عليه بالزواج. ثم رفضتْ زوجته مشاركته الاقتناع بعدم الإنجاب. إذا كانت الثانية ظهراً فهم يتحلّقون حول المائدة، ولهم ضجيج، يمضغون ويتكلمون، وأمهم تطفئ الحرائق التي تشب بينهم، تطفئها ثم لا تلبث أن تشتعل هي. لا لن يفعلوا ذلك لا بُدَّ أنهم مطأطئو الرؤوس، حزانى، يتذكرون جلوسي بينهم، يفتقدونني على المائدة، فلا يُسيغون الطعام، لا بُدَّ أن الحزن يكسو كلَّ زوايا البيت.

أوحتْ له برودةُ التراب تحت جنبه بأنها ليست الثانية ظهراً، بل هو صقيع المساء الذي يكسو عالمهم كما يكسو عالمه. ربما يشاهدون الآن حلقة من مسلسل المساء، ترى أي حلقة هي الآن؟ كانت آخر حلقة شاهدها معهم الرابعة عشرة، ربما تكون هذه الحلقة الخامسة عشرة، وربما تكون أكثر من ذلك، ليس يدري. المهم أن يكونوا مستمتعين بالمشاهدة. عندما تنتهي سيحزنون قليلاً، ثم يتذكرون واجباتهم التي أهملوها، فينثرون حقائبهم، ينبشون دفاترهم ويجمعون أقلامهم، ثم ينكبُّون يُحلُّون واجباتهم. منهم من يتم الكتابة، ومنهم من يغلبه النوم في مكانه.

يتملَّكه الحزن كلما رآهم نائمين، يتأملُ براءتهم؛ ويفكر في المصاعب التي تستقبلهم، يؤرقه كثيراً هذا الشعور. في الليالي الباردة يغطيهم ويبقى يتأملهم وهم يغطون في سُباتٍ عميق، يشعر بعبثية وقسوة ما ينتظرهم في الغد.

هكذا كان مثلهم يركض في طفولته، وكلما خطا خطوةً تلاشت الفرحة التي كان يتخيل أن سيجنيها، وبدأ الركض خلف وهمٍ جديد: لا غنى لنا عن الأوهام، من دونها الحياة لا تطاق، ما أضيق العيش لولا الفسحة التي تمنحنا إياها أوهامنا. بتلك الأوهام تصبح الحياة إمكانية جميلة لشيءٍ لا يتحقق أبداً.

يعتقد عمر السورجي أنه غادر الحياة بشكل مفاجئٍ، لم تمنحه المفاجأة فرصةً ليُعدَّ حقيبته التي تعوَّدَ أن تصحبه في أسفاره، والأهم منها هنا وسادته الرمادية، كم كان سيبدو الوضع مريحاً لو أنها تحت رأسه.

(5)

كان يتوقَّع أن يجد جدتَهُ (فضَّة) هنا، ليعاتبها حين أخَّرته عن الدراسة ثلاث سنوات؛ بحجة أنَّه لا يتحمَّل قسوة المعلمين. وليسألها عن سرِّ عدم ثقتها بالرجال. فهي رحلتْ إلى مكانٍ يشبه هذا المكان، ربما تكون النساء معزولات عن الرجال هنا أيضاً! لم تكن تأبه لهذه التقسيمات، كانت تخالط الرجال وتشتمهم عندما يستدعي الأمر. كانت مزيجاً غريباً من المعقول وغير المعقول؛ فهي لم تتزوج. تعتزُّ أنها عاشت عذراء لم يدنسها رجل. إنها تشبه (أرتميس) في الأسطورة اليونانية. وكما كانت (أرتميس) تساعد النساء ساعة الوضع، كانت (فضَّة) قابلةً، فأكثر أبناء السورجة عبروا إلى الحياة على يديها، بما فيهم عمر. مارستْ دوراً رقابياً على أبناء السورجة جميعاً، تشتمهم وتشي بهم عندما يقترفون ما يوجب العقوبة. لم تكن تخاف شيئاً، تسير في الظلام مسافات بعيدة، عندما ضعف بصرها، استعاضت عنه بسمعها الرهيف.

تحكي للصغار ما تتذكَّر من الأزمات التي مرَّتْ بها، تكررها

كثيراً، أصبح بوسعهم إكمال الحكاية حين تبدؤها، ولكن ليس أمامهم إلا الإنصات حتى تنتهي من سرد حكايتها، لا تضيف إلى ما قالت في المرات السابقة كلمةً واحدة، سألها عمر مرةً:

– ألستِ أكبر من جدتي حالية؟!

– أنا أكبر منها بسنتين.

– فلم لم يتزوجك جدي عمر؟

تدخَّل أبوه: وما دخلك يا قليل الأدب؟

– رفضتُ الزواج بجدك عمر كما رفضتُ كلَّ الرجال الذين خطبوني.

– هل كنتِ تحبين أحداً.

– نعم!! كنتُ أحبُّ نفسي؛ ولا أرخصها لمطالب الرجال الدنيئة. قالتها بغضب عقلَ لسانه عن الاستمرار في الأسئلة.

كانت حازمةً بخلاف جدته (حالية) والدة أبيه، ذات القلب الطيب التي تطعمه التمر، وتخيط ثيابه عندما يأتيها وقد تمزَّقتْ عند مواضع لا يحسن أن تبدو للناس. كانت تخيطها وهي تعجب من رغبته في تبديلها، فلاتزال فيها بقية.

– ليتك يا ولدي رأيت كيف كنا نلبس.

– كيف كنتم تلبسون؟

– كنا نلبس قطعتين منفصلتين من الخلف والأمام، ونحتزم

عليهما بحزام من الجلد أو القماش.

– لِمَ لا تخيطونها يا جدة؟

– لم يكن كلُّ شيءٍ موجوداً مثل هذه الأيام.

– أنتم تبخلون على أنفسكم، كما يبخل أبي عليَّ.

– أبوك لا يبخل عليكم. ستُعَلِّمكم الأيامُ كم يتعب الأب من أجل أولاده، وهم لا يشعرون.

– لكنه لا يتعب من أجلنا.

– رأسك في غفرة يا ولدي.

بهذه الجملة تختتم حواراتها معه في كثيرٍ من الأحيان، عندما تشعر بأن الحوار لا يتجه نحو نتيجة. كان يعرف أن الغفرة وعاءٌ جلديٌ يُحمل فيه المتاع، ولكنه لم يحاول تخيل رأسه داخلها. عرفَ فيما بعد مغزاها، وعرفَ أيضاً أنها كانت مُحِقَّة. ولكنه لايزال موقناً بأن الأشياء لم تكن مهيأة لجيلهِ في السورجة، كما لم تكن مهيأة لجدته حالية وجيلها، وإن ظنَّت أن الأمور قد تهيأت لجيل عمر. تُحَدِّثُهم عن حياة المسغبة التي كانت تعتادهم بين الحين والحين. عندما يمر العام دون هطول المطر، فتجدبُ الأرض، وتصبح المزارع بلا قيمة. وتحدثهم عن مغامرات اللصوص الذين يتحينون غفلات الرعاة، وعن القانون المتبع في معاقبة السارق، يغرم ضعف قيمة المسروق، وعن تلك المرة التي سار فيها والدها خلف اللصوص، يقص أثرهم، حتى عثر عليهم خلف (جبل حالية)، قاطعها عمر:

– لِمَ سموه على اسمك يا جدة؟

– لستُ أنا يا ولدي. إنها عمتي حالية، كانت تحتطب فتعثرت وسقطتْ، في الجانب الشمالي الوعر من الجبل، وماتت، فَسَمَّوا الجبل باسمها. بعد ذلك بشهور ولدتُ ولاتزال قصة مأساتها تملأ السورجة فسموني على اسمها. كانت حكايتها موجعة، إذ لم يستطع الرجال الوصول إليها، طوال الليل، فأخذوا يوقدون النار حول المكان الذي يصدر منه أنينها، ليخيفوا السباع فلا تصل إليها قبلهم. استطاع أبي الوصول إليها، ولكن في موهنٍ من الليل، وكانت في الرمق، ولم يصل بقية الرجال حتى ماتت. لم تتوقَّع حالية أن سيتناهى إلى أذن عمر فيما بعد، أن عمتها ألقت بنفسها عندما خذلها الحبيب الذي منحته نفسها بلا ثمن. فرحل مخلفاً امرأةً لها بطنٌ يتضخَّم، فوارته عن عيون أهل السورجة وكلماتهم. نسبوا الجبل إليها؛ تخليداً لاسمها على طريقة العرب في تأجيل التكريم إلى ما بعد الموت، أو تخليداً لعارها.

– هل تصارع مع اللصوص، عندما وجدهم؟

– اللصوص يسرقون فقط عندما يجوعون. عندما وجدهم أبي قد ذبحوا وسلخوا وأوقدوا النار، رحَّبوا به، وقالوا: «شاتك عندنا» وأنتَ ضيفنا هذه الليلة، فتعشى معهم وتحدثوا ولم يتطرقوا للسرقة، وتقاسموا معه ما بقي من لحم الشاة، وبعد أيام جاء أحدهم بشاتين، فمن سرق شيئاً وأدين به يغرمه مرتين. رحَّب به أبي، ثم انصرف وانتهى الأمر.

(6)

رافق الموتُ عمر السورجي من لحظة ميلاده، فقد تنكَّرت الحياة لأمه بمجرد دخوله إليها؛ وكأنَّما عاشتْ فقط، لتكون ذلك الباب الذي يلج منه. لم ينس الصخب الذي ملأ بيتهم، قبل أن يعرف أن جدَّه عمر مات. كان في الخامسة من عمره، لا يتذكر من صورة جده إلا طوله الفارع، وحزامه القديم، وجسده المحني، ولحيته الحمراء. يتحدث عنه أبو عمر بإعجاب شديد؛ فهو العصامي الذي استطاع أن يكوِّن مملكته الخاصة، مزارع الذرة التي تستدير حول جبل حالية من الجهة الجنوبية، حتى لا يكاد يرى أطرافها، وقطعان الماشية، والأغنام، والحمير. كان يمتلك جزءاً كبيراً من مزارع السورجة، يعمل لديه في الزراعة، والرعي بنوه وبناته وعددٌ من الأُجَراء والأجيرات.

في السورجة التي تَحفُّها الجبال من ثلاث جهات، استطاع جد عمر أن يجعل مزارعه بإرادته وحسن إدارته أخصب مزارع السورجة، فلا ينقطع ثمرها، طوال العام، مع أنه كان في مطلع شبابه أجيراً عند رجل وزوجته، وأخاً لابنهما وبنتيهما.

قالت (فضَّة) لعمر وهي تحكي له على عادتها: ماتَ أخي في صباه، وتزوج جدك عمر جدتك حالية، أما أنا فلا أرغب أن أبيع نفسي لرجل، فبقيتُ حرةً طوال عمري. عرف منها فيما بعد أن أخاها ماتَ مقتولاً.

– ومن قتله؟

– بسم الله، أعوذ بالله. قتله الجن يا ولدي.

– كيف قتلوه؟!

– الجنُّ يتخلقون على شكل الحيوانات والزواحف، خاصةً عند الغروب، وفي هذا الوقت قتل أخي ثعباناً، وفي منتصف تلك الليلة سمع الناس في السورجة صوت امرأة تعبر الطريق إلى بيتنا وهي تنشد:

«من الحفافة مشيتْ

حافية ما احتذيتْ

جائعة ما اغتذيت

عارية ما اكتسيت

على ابن عمي بكيت»

والجبال تردد صدى نشيدها، في سكون الليل، ثم أصبح أخي مذبوحاً في فراشه، فَبُهِتَ أبي وأمي، وجاء الناس، وكُلُّهم يتحدثون عن منشدة الليل.

خطر لعمر أن يسألها، أين كان جدُّهُ عمر تلك الليلة؟ ثم خشي أن يثير شكوكها النائمة، فعدل عن السؤال الذي كان سيأتي بدوره بسؤال الاتهام، فقد لمحَ خلف هذه السنوات جريمة لم يتنبَّه لها أحد.

يتمنى عمر لو لقي جده ليسأله دون حياء، هل شارك الجن في قتل الشاب؟ ليستحوذ على المزارع والبنتين، أم أن سوءَ ظنِّه أدرك جدَّه هنا أيضاً. هنا لا يستطيع جدَّه أن يقول غير الحقيقة. ولكن كيف ينفذ إليه في هذا المكان المحكم؟! يكاد يفقد الأملَ في لقاء من تأمَّلَ لقاءهم من الراحلين، حيثُ لا يستطيع الحركةَ والبحثَ عنهم. حتى عيناه لم يعد يهتم بحركتهما فلا طائل وراء تحديقهما في هذا الظلام الدامس. ذاكرته فقط هي التي تَنِزُّ بأحداث الماضي. الملل يوشكُ أن يتغلغل إلى ذاكرته أيضاً، يتمنى لو يستلقي على ظهره، ولكن ذلك يبدو مستحيلاً، والمستحيل أيضاً أن تأتيه هنا وسادته الرمادية.

(7)

يعتقدُ عمر أنَّ جدَّهُ ما كان ليبارك انتقاله إلى المدينة، مع عمه (أبوجمال) لدراسة المرحلة الثانوية، فقد سمع أن جده يعتبر المدرسة مَفْسَدَة، ويسميها (مَدْلَسَة)، ويُسمي المدرسين (مُدَلِّسين) استخفافاً بدورهم. فالدارسون من أبناء السورجة ليسوا كأبناء الجيل السابق الذين لم يُحتجزوا على مقاعد الدراسة سنوات، وينعموا بالظل نصف النهار. يمقتهم لأنهم لا يعتنون بالمزارع، وينشغلون بدروسهم عن الرعي. وليس لديه وقتٌ لغير الكدِّ والكسب، إما في المزارع والمراعي، وإما في ميدان التجنيد، والوظيفة التي يقبض الموظف أجره منها نهاية كلِّ شهر. وعمر لا يحبُّ الرعي و الحرث ولا الزراعة، ولن يُرحَّبَ به في مكاتب التجنيد، فمرضى الربو لا يصمدون للتدريبات العسكرية. المكان الذي يتجه إليه أبناء السورجة الذين جاوزوا الثامنة عشرة، أو استطاعوا بطريقة ما، تعديل تواريخ ميلادهم.

بعد أن أتم عمر المرحلة المتوسطة اقترح عمُّه (أبوجمال) أن يأخذه ليدرس مع ابنيه (جمال) و (سعيد) في معهد المدينة. كان

جمال قد درس سنة في المعهد، أما سعيد فهذه ستكون سنته الأولى، وهذا ما شجَّع عمر على القبول برغم تردد أبيه، الذي ترك الأمر لجدّته فضَّة فقالت: المدينة تفسد الأولاد، خيرٌ له أن يبقى يرعى وينفع أهله هنا. لم يكن رأيهُ مهماً برغم أن الأمر يتعلّقُ بمستقبله، فما يقرره الكبار يمتثلُهُ عمر دون ضرورة لاقتناعه. مازال بها أبوجمال يحدثها عن المستقبل الذي ينتظره عندما يتم دراسته في معهد المدينة، حتى أقنعها.

ينظر عمر إلى السورجة، بعينٍ يملؤها الدمع، فسيغيب عنها شهوراً، وهذا ما لم يحدث من قبل. شعر بأن قطعةً من قلبه سوف تبقى هنا. كان في وداعهم أبوعمر وجدته فضَّة، وجدته حالية، وأبو نافع، وزوجته وأولادها، ونافع، وآسية تترقرق الدموع في عينيها، تنظر إليه في صمت، تسلِّم على أم جمال وهي تنظر إليه، تذكّر القبلة التي طبعها على خدها، تساءل أمازالت تتذكرها؟ تمنى أن يجد فرصةً ليطبع على خدها قبلةً ثانية، فتكون آخر عهده بالسورجة. بدتْ له هذه الأمنية بعيدة المنال.

برفقة أسرة (أبوجمال) ركب عمر (الجيب الشراع) الذي سار بهم عبر الطريق الترابي الذي يتعرَّج في التواءات ثعبانية، حتى ينسَربَ في وادٍ كثيف الأشجار، وبعد أن ساروا فيه وقتاً يبدو مملاً تعلو وتهبط بهم السيارة في أخاديد السيل، أسلمهم الوادي الأول لوادٍ أكبر منه، ثم اتجهوا يميناً مصعدين في الوادي الواسع، الأكثر استواءً والأقلَّ التواءاتٍ. تحفُّ عمر الرهبة، ويغشى وجهه القلق، وتتملكه الحيرة، إزاء قدرته على مواجهة هذا التغيير. يشعر بالحنين للسورجة، وأهلها، حتى الذين لا

تربطه بهم علاقة، شعرَ بحبٍ يغمره لكل ما غاب عنه من السورجة. بَدَتْ له السورجة مرةً أخرى، من بعيد هذه المرة فلا يكاد يميِّز البيوت والمزارع، والشمسُ توشك أن تغيب خلف جبل حالية الذي يضم إلى صدره السورجة. يريد أن يبكي، أن يقفز من السيارة، ويركض باتجاه السورجة، وآسية. يبدو له من حديث عمه أنه لاحظ الوجوم والدموع الحائرة في عينيه حين سأله:

– هذه أول مرة تركب السيارة يا عمر؟

– لا. أحياناً نركب في طريق المدرسة.

– إذاً هذه أول مرة تركبها إلى المدينة، ستعجبك المدينة، شوارع مسفلتة، وأنوار وعمارات كبيرة، وتلفزيون، وسآخذك إلى السورجة في الإجازات.

كلمة واحدة تكفي لينخرط عمر في نوبة بكاء، كان يحتاج إليها ليغسلَ بالدموع بقايا صور المودعين، ولكن الدموع ستمس رجولته، وتهز صورته فالرجال لا يبكون، كما كانت تردد جدته فضَّة، كلما غلبه البكاء، لضرٌ مسَّه. لاذ بالصمت وبودِّه لو يقول: ليس هناك أجمل من السورجة، ولا حياة إلا حياتها، ولا ناسَ إلا ناسها، ولا آسية إلا هناك.

كيف يصبر عن رؤية آسية، شهوراً طويلة، وهو الذي كان يراها كل يوم، كما يرى وجهُ السورجةِ ضوءَ الشمس كلَّ صباح؟ لم يجرب الوداع من قبل، ولم يكن يصدِّق أنه بهذه القسوة، استمع بتلذذ لسعيد الكرمي في إذاعة لندن منذ أيام في برنامجه

(قولٌ على قول) يقرأ مقطوعةَ لابن زيدون، في الوداع، حفظ منها قوله: (ودَّع الصبرَ محبٌ ودَّعك) تمنى لو حفظ المقطوعة كاملةً، فقد صارت تعنيه الآن وآسية، كما لا تعني أحداً سواهما.

(8)

غادروا السورجة بعد صلاة العصر، وها هي العشاء تحين، ولم يدخلوا المدينة بعد. سار بهم صاحب السيارة التي استأجروها عبر أودية يثور فيها الغبار، من تحت عجلات السيارة التي تصارع الحجارة والرمال، والمنخفضات والمنعرجات، قبل أن تلامس عجلاتُ السيارةِ الإسفلت الذي ذكره أبو جمال، ولم يره عمر من قبل. لاحظ عمر أن سرعة السيارة تزيد، بينما يهدأ اضطرابها، كانت تجربة جديدة أن يرى السيارات القادمة، يبدو نورها من بعيد، ثم يكبر قليلاً قليلاً، حتى يمر إلى جواره كالبرق ثم يختفي. الإشارات الفسفورية العاكسة المُثَبَّتةُ في الإسفلت تبدو كالعقد الجميل، ظلَّ يُحدِّق فيها على امتداد الطريق وهي تجري باتجاههم ثم تختفي كأنما تلتهمها السيارة. شعر بدوار يلف رأسه. الراديو يذيع أخباراً وتحليلات عن الحرب وبطولة الجيش المصري في اختراق خط برليف. أبوجمال يهتف: هذه كرامتنا رُدَّت إلينا. يشرح للسائق كيف أن الإسرائيليين صنعوا حاجزاً تُرابياً، لا يمكن اختراقه على شط القناة، ولكن المصريين الأبطال استطاعوا تجاوز

الحاجز، ووضع العلم المصري فوق سيناء. برغم أن الحرب انتهت منذُ شهور، إلا أن نشوة الانتصار حديثُ السياسيين والخبراء، ولاتزال التعليقات والتحليلات تتواصل عبر الإذاعات.

يتحدث السائق عن بعض نوادر الذين ركبوا سيارته في مراتٍ سابقة إلى المدينة، أو قادمين منها. تتوقع أم جمال أن أي تصرف أو كلمة منها ستكون مثار تعليق السائق مع راكبين آخرين، فلزمت الصمت. كانت تفكر أيضاً فيما ينتظرها من ترتيب وتنظيف البيت الذي غادروه منذ شهر. كيف سيكون هذا الضيف المقيم؟! ستضيف سريراً ثالثاً في غرفة جمال وسعيد، الغرفة تتسع لنومهم ومذاكرتهم. تخشى أن يقترح أبو جمال أن يكون فراشه في المجلس، المجلس يجب أن يبقى مهيأً لاستقبال الضيوف في أي وقت، لا بدَّ أن يكون مع ولديها في غرفتهما.

يدور حديث هامس بين جمال وسعيد، يتحول إلى ضحكات، ثم لا يلبث أن يصبح مشاتمةً وشكوى، يسكتهم أبو جمال، ويهدد بإنزالهم من السيارة، يبتسم سعيد لهذا التهديد غير المعقول، ويتخيل فيما لو نفذ أبوه تهديده كيف سيتصرفان في الظلام، والمكان المقطوع عن العمران. يدور رأس عمر، ولا يشعر بمن حوله، ولا ينتبهون له.

أشرفت السيارة من ثنية فإذا المدينة بين أيديهم. مدينةٌ مستديرة، أضواءٌ ساطعة، وميض لوحات النيون الملونة، وأضواء السيارات في الشوارع، وواجهات المحال، وأعمدة نور الشوارع في كلِّ الاتجاهات، خطوط من الأضواء متداخلة. ساروا

باتجاه منتصف المدينة في طريق مستقيم، والهواء البارد يلامس وجه عمر يبعث الانتعاش في جسده الخامل. خلف صفٍ مزدحم بالسيارات توقفوا، كانت الإشارة حمراء، وعمر يتساءل عن سر الوقوف، أراد أن يسأل: هل يحتاج دخول المدينة إلى طابور، كطابور المدرسة، أو كطابور تسلم الوجبات الغذائية المدرسية؟! خشي أن يكون في سؤاله ما يثير السخرية، فاكتفى بالمشاهدة، تحاول عيناه التهام المشاهد المتتالية، فكل شيءٍ جديد عليهما. بعد أن استدار السائق في شوارع متداخلة، وقف جوار بيتٍ صغير، عندما نزلَ عمر من السيارة عاوده الدوار من جديد، حاول أن يقف فلم يستطع، استند إلى مقدمةِ السيارة وأغمض عينيه، قليلاً دون أن يشعر به أحدٌ. جمال وسعيد ينزلان الأمتعة من السيارة، ولايزال في مكانه.

أفاق على صوتٍ أفزعه، فلما حقَّقَ الاستماع إذا هو أذان الفجر. أضواء الشارع تتسلل من النافذة الزجاجية فتكشف له تفاصيل الغرفة، كان على سرير، وسعيد على الآخر، وجمال في زاوية الغرفة يفترش الأرض. شعرَ بذهول ألزمه مكانه حتى تذكَّرَ رحلة الأمس، ولكن كيف دخلَ هنا، وآخر عهده بنفسه عند وقوف السيارة؟! أجال نظره في الغرفة، سريران، دولابان، طاولتان، كرسيان، شعر بأن كلَّ شيءٍ هنا معدٌ لاثنين فقط. انتابه شعور بأنه شيءٌ زائدٌ في هذا البيت. شيءٌ مُحرج أن تجدَ نفسك تشارك آخرين حياتهم، ولا خيار لك إلا هذه المشاركة.

تعبه من جراء السفر الشاق، أعانه على تجاوز ليلة من الأرق والوساوس المتوقَّعة التي صاحبته طوال رحلته حتى أدركته

أضواء المدينة وبهرته. خرج من عالم السورجة الذي لا يعرف سواه، إلى عالمٍ جديدٍ مليء بالناس، والأضواء، والحركة، والأسرار. مشاعر كثيرة تصطرع في نفس عمر، حنين للسورجة، وشوق لآسية، وخوف من المدينة.

(9)

دهشت المدينة عمر، بهرتهُ الشوارع والأرصفة، والعمارات والأسوار، الأشجار المشذَّبة، المطاعم والمكتبات، والمحال التجارية، الأنوار التي تضيء الشوارع والمنازل حتى الصباح. في السورجة، تُطفأ الفوانيس بعد العشاء، ويحِلُّ السكون والظلام فلا يُسمع إلا نباح الكلاب، أو ثغاء الأغنام، وضراب التيوس. التلفزيون ذو اللونين في بيت (أبوجمال)، كان محيراً، ومثيراً؛ فالناس يتكلمون فيه ويتحركون، والمناظر تُنقل من بلاد بعيدة، مسلسلات بلغات تشبه لغة معلميه المصريين والشاميين في مدرسة السورجة، كانت تلك المشاهد تأخذه إلى عوالم سحرية لا تُصدَّق.

تكررت المشاهد فأكسبتْ حواسَّه مناعةً ضد الأشياء الجديدة. الوجوه غير المألوفة تمر به كلَّ يوم؛ أجناس وأشكال وألوان مختلفة. عندما يقتحم وجه جديد السورجة سرعان ما يكشف لأول من يلقاه من هو؟ ولِمَ جاء؟ فالغريب لا بُدَّ أن يُعَرِّف بنفسه، وسبب مجيئه، ومقصده. يحاول جمال تقريب تلك

المشاهد لعمر، ويشرح له ما لم يستطع فهمه مما يُعرض في التلفزيون. أما سعيد فكان يستمتع بدهشته، ويضحك على تعليقاته الريفية. وبرغم محاولاته كتمان دهشته في كثير من الأحيان؛ فإنها أحياناً أخرى تكون أكبر من أن يستطيع كتمانها؛ فلما كانوا يشاهدون فيلماً أجنبياً ويحاول ملاحقة الترجمة المكتوبة على الشاشة، كان هناك مشهدٌ لطفل يبكي، فصرخَ عُمر مستنكراً: الولد يبكي عربي؟! فانفجر سعيد ضاحكاً، وحاول جمال أن يتماسك، ولكنه عجز فضحك، وتماسكت أم جمال خوفاً على مشاعره، حتى رأته يضحك بعد أن أدركَ أن لغة البكاء واحدة، فضحكتْ أم جمال أيضاً. بمرور الأيام صارَ عمر لا يجد حرجاً من تعليقات سعيد تلك. بل فوق ذلك أصبحَ يتعمَّد إثارة سخرية سعيد، ويستمتع بتعليقاته.

لم تكن أم جمال تُعامله كولديها، بل بشيء من التقدير والاحترام. تُذكِّرُه هذه المعاملةُ بأنَّه ليس جمال ولا سعيد، وأنه يجب أن يكون جديراً بهذا الاحترام. كان ذلك يشكِّلُ عبئاً عليه ولكنه يمنحه نوع اتزان وتفكير في الأمور بشكل هادئ، لكيلا يقترف ما يسوؤها. وكذا عَمُّهُ الذي يعامله بأبوَّة، كما يُعامل ولديه، إلا عندما يكون الأمر لوماً أو تقريعاً، فإنه يتجاهله ويوجه اللوم لولديه. كان أبو جمال مُطَّلِعاً؛ يهتم بأخبار العالم، ويتابع الصحف، ويقرأ المجلات. وجد عمر في رفوف طاولة التلفزيون عدداً من الكتب التي كانت عوناً له على تزجية الوقت؛ في صباحات الإجازات التي يقضيها جمال وسعيد في النوم حتى العاشرة؛ موعد بداية البث التلفزيوني اليومي. سببت هذه

التعاملات المختلفة نوعاً من الازدواج في حياة عمر داخل بيت عمه، ما بين احترام أم جمال الذي يفترض فيه رجلاً كبيراً، وأبـوَّة (أبـوجمـال)، وعنـايـة جمـال، وسخريـة سعيد، وشعوره بـالغربة في المدينة التي يعجبه كلُّ شيء فيها، ولكنه عاجز عن الاستمتـاع بـأي شيءٍ فيـهـا، لأنـهـا ليست ملكه. في السورجة يمكنه التعامل مع الأشياء كأنما هي تخصه.

نشأت بين عمر وابني عمه ألفة وحميمية خلال أيام. لا يعرف كيفَ استطاع أن يكسبهما، ويجعلهما يتعلقان به، ويتسابقان إلى كسب ودِّه، إلى درجة أن جمال يحسد سعيد على مرافقته في صفٍ واحد؟!.

في يومه الأول في المعهد شعر بغربة حقيقية بين عدد كبير من الطلاب، وعدد كبير من المعلمين. قال له أبو جمال وهو يودعه عند خروجه من المنزل: لا تستغرب نظرات الطلاب إليك، لأنك تبدوهم بالنظر فيردون على نظراتك بنظراتهم، فلا تركِّز النظر إليهم ولن يركزوا النظر إليك، ثم التفت إلى جمال وقال: انتبه لعمر وسعيد. كان سعيد مصدر معرفة عمر بكثير من الأشياء في الطريق إلى المعهد، وكثير من الزملاء الجدد. كان يُعْرِّفهم بعمر السورجي، ويشيد بمستواه الدراسي وثقافته.

يدخل عمر المعهد للمرة الثانية. كانت المرة الأولى برفقة سعيد لتسليم ملفاتهما للتسجيل. يتحاشى النظر إلى وجوه الطلاب. يجيل نظره سريعاً على المكان الذي يرغب اكتشافه، آخذاً بنصيحة عمه التي أفادته ليس في المعهد فحسب، بل في

كل مكانٍ جديد يدخله لأول مرة، ولكن عينيه تتشبثان بطالب يبادله النظرات. هل يُعقل أن يكون نافع؟! اقترب متردداً، بينما يُحدِّق نافع تجاهه، وكأنه يعجب لتردده في السلام عليه. فنافع يعرف أن عمر سيسجل في المعهد، وينتظر لقاءه. أقبل إليه ومدَّ يده ليصافحه، فقطع شكه باليقين، وتعانقا وجلسا يتحدثان ومعهما سعيد. سأله عمر عن السورجة، وعن أهلها، وعن المطوع، وعن زوجته التي كانت تعطف عليهما كما تعطف على آسية. قُرع الجرس لبداية الطابور. الطابور مرةً أخرى! كلُّ شيءٍ يبدأ بطابور فلا يتوقَّعُ له عمر نهايةً جيدة.

في الطابور حرصَ نافع على أن يكون بقرب عمر، وكذا في الفصل. شعر بأنه يحتاج إليه بقدر احتياج عمر إلى سعيد. رحَّبَ عمر بهذا القرب فكأنما هو بذلك يقترب من آسية. التقى نافع جمال وسعيد في السورجة، ولعبوا معاً في إجازة الصيف، فصار الأربعة في المعهد يشكلون مجموعة متجانسة، منذ الأسبوع الدراسي الأول.

عرف عمر من نافع أن المطوع جاء برفقته إلى المدينة قبل بداية العام الدراسي بأيام، واستأجر له غرفة بجوار المعهد. صار الثلاثة يعتادونه فيها، ودعاه جمال وسعيد لزيارتهم. احتفى به أبو جمال كثيراً، وسأله عن أخبار السورجة، وعن أهلها واحداً واحداً، ورحبت به أم جمال، وسألته عن زوجة المطوع، وسألته عن نساء كثيرات لم تكن منهن آسية. ذلك السؤال الذي انتظره عمر ولم يأتِ. كان سيقنع بسماع اسمها على لسان نافع أو أم جمال، ولكن أمنيته لم تتحقق. وما أكثر أماني عمر التي لم تتحقق.

ساعد هذا التجمع عمر على الاندماج قليلاً مع أجواء المدينة، حيثُ قضى أربعة أشهر، رصد خلالها، كلَّ المشاهدات بدِقَّة، ولم تعد تدهشه الأشياء الجديدة التي تفاجئه كلَّ يوم، فقد كان المعهد بمن فيه من الطلاب أشياء جديدة، تحتاج إلى وقت من التأمل والتحليل لرموزها.

(10)

يقترب عمر ونافع من السورجة، بعد أن مشيا جزءاً من الطريق، وركبا مع بعض العابرين جزءاً. لم يكونا بحاجة إلى أن يؤشرا للسيارات لتقف لهما، فلا أحد في الطريق المؤدي إلى السورجة يمر بهما دون أن يتوقف، ويعرض عليهما صحبته، وإن لم يعرفهما. كلاهما متشوقٌ للسورجة، بقدر لهفة عمر للعودة إلى السورجة، شعرَ بحزنٍ لم يتوقعه عند وداع جمال وسعيد، وعمه وعمته. دموع أم جمال كانت صادقة، وإن لم تذرفها، شعر بحشرجة البكاء في صدرها. بالرغم من أن الإجازة أسبوعان فقط. هل بدأت عقدة الوداع تحيك خيوطها في نفس عمر؟! هذا الوداع الثاني، لم ينس وداع السورجة منذ أربعة أشهر، مازالَ غصةً في حلقه. ذكَّرته دموعُ عَمَّتِه بدموع آسية. لهفته للقاء آسية أشغلته عن اجترار ألم وداع أسرة (أبوجمال). ترى كيف سيكون وقع المفاجأة على آسية؟ ترى هل تغيرت خلال هذه الشهور الأربعة؟

لحسن حظ عمر أن بيت المطوِّع في الطريق إلى بيت أسرته، ولذلك فمن الطبيعي أن يدخل برفقة نافع؛ فيسلم على المطوع، كبير القرية، وإمام المسجد، الرجل الطيب الكريم الذي يحظى

بمحبة أهل السورجة وثقتهم، ويلتقي زوجة المطوِّع المرأة الطيبة التي كانت أماً لنافع وآسية وعمر، ثم يواصل طريقه. كانت آسية ضمن المودعين، عندما غادرَ السورجة؛ فلا بُدَّ أن تكون من المستقبلين الآن. بقي نحو ساعة على غياب الشمس، وهذا يُتيح رؤية آسية بشكل جيد، وتأمُّلَ ملامحها الحبيبة. استقبلتهما زوجة المطوع وبنتها ذات الست السنوات، جلسا على سطح غرفةٍ مقابلة لساحة البيت، جاء المطوع من مزرعته، ورحَّبَ بهما بحفاوة كترحيبه بالرجال الغرباء. لم تأتِ آسية، وليس السؤال عنها مستساغاً. مضى الوقت في الإجابة على أسئلة زوجة المطوع؛ عن المدينة وعن أسرة (أبوجمال). أدركه اليأس من رؤية آسية، فعزمَ على الاستئذان ليصل أهله قبل غروبِ الشمس. عندما همَّ عمر بالقيام، أطلَّت آسية تحمل صحناً كبيراً فيه براد الشاي والخبز. وضعت الصحن بينهم، وقبَّلتْ رأس نافع، وقبَّل رأسها، جاء دور عمر فقبَّلت رأسه على عجل، وفعل كذلك. عدلَ عن عزمه الوصول إلى أهله قبل الغروب. شربوا الشاي واستمرت الأسئلة عن المدينة وأهلها، وعن الدراسة، وعن الطريق. يسارقها النظرات. يجيل النظر في كل شيء ليمر بآسية فيلتقط لها صوراً سيختزنها في ذاكرته، ويحللها فيما بعد. تبدو أجمل من ذي قبل، الحناء يُزيِّنُ كفيها، والكحل يجمل عينيها الناعستين، وضفيرتان تنسدلان على صدرها من تحت عقدة المنديل الأصفر، ثم ينعقد طرفاها ثانيةً بين نهديها اللذين لم يتنبَّه لجمالهما من قبل. لم يسمع صوتها، كانت تسكب الشاي وتقدمه دون أن تتكلم. نهض المطوع مستعيناً بالله ليؤذن لصلاة المغرب، عندها لم يجد عمر مناصاً من الاستئذان.

(11)

يقترب الأسبوع الأول من إجازة نصف السنة من نهايته. تردَّد عمر خلاله على بيت المطوِّع مراراً، باحثاً عن نافع، أو زائراً له، أو برفقته. كان فيما مضى يستطيع دخوله دون الحاجة إلى مبرر، فما الذي تغير؟! أهو التأثر بعادات المدينة؟! حيث يوجد على كل باب جرس، تقرعه، ثم تنتظر، حتى تُسأَلَ: من أنتَ؟ ثم يُفتح لك الباب أو لا يُفتح. في السورجة لا يوجد أجراس، يكفي القادم أن ينادي: «يا أهل البيت» فيأتيه الجواب على الفور، بالترحيب، دون أن يسأله أحدٌ «من أنت؟». أم أن عمر خلع رداء الطفولة في المدينة وعاد رجلاً، تُحسبُ عليه تصرفاته؟ أم أنه أصبح غريباً على السورجة، لِمجرَّد إقامته في المدينة شهوراً؟. لَمْ يحظَ عمر بلقاء آسية منفردة، فيبثها حبَّهُ، ويحدثها عن المدينة، ويجدد ما بينهما من مواثيق، كان ذلك متاحاً بسهولة منذ أربعة أشهر فما الذي تغير؟!

بعد أيام سيحين السفر إلى المدينة، لا بُدَّ من لقاء آسية، مهما كلَّف الأمر؛ عند أذان العشاء سيكون نافع وأبوه في المسجد، رأى عمر هذا الوقتَ مناسباً للقاء آسية. لبس ثوبَه الرمادي، وجاء

من جهة الجبل، اقترب من بيت المطوِّع من جهته الخلفية، يتقدَّم خطوات ثم يقف ليرصد المكان، الظلام حالك، ولكنه يعرف المواقع جيداً، ارتقى سطح الغرفة التي تُطِلُّ على ساحة البيت، استلقى على بطنه يرقبُ المكان، يُفَكِّر ماذا سيقول لآسية؟ يتذكر حين كانت تقدِّم الشاي في هذا المكان يوم وصوله مع نافع من المدينة، يستعيدُ بذاكرته ملامحها، تفاصيل جسدها، بعد وقت خرج المطوع يتوكأُ على عصاه، سلك الطريق المؤدي للمسجد، ارتفع صوت المطوع بأذان العشاء. خرج نافع وأخوه الصغير باتجاه المسجد أيضاً، بدأت أنفاسهُ تتلاحق، كيف يصل الآن إلى آسية، دون شعور زوجة أبيها وأختها الصغيرة.

لا يُطيلون الانتظار قبل الصلاة وبعدها، كما يفعل المصلون في المدينة؛ في السورجة يجتمعون على صوت المؤذن، فيصلون ثم ينصرفون إلى بيوتهم مباشرة. الوقت يمضي، وآسية لا تخرج من البيت لأي غرض، نزل من السطح واستدار من خلف البيت، اقترب من نافذة المطبخ، وجد آسية في المطبخ بمفردها، رمى حصاة صغيرة، قريباً منها، التفتت، ناداها هامساً: آسية، آسية.. اقتربت من النافذة.

– أنا عمر يا آسية.

– حرام عليك خوفتني.

– تعالي.

قبل أن تخرج إليه، تأكدتْ أن زوجة أبيها لاتزال مشغولة بإرضاع صغيرها، اقتربت منه وهمست: خير يا عمر؟

– قال بصوتٍ متردد: من يوم رجعتُ من المدينة وأنا أحاول أن أتكلم معك وحدنا، وخفت أن تنتهي الإجازة قبل أن نجلس وحدنا، كما كنا نفعل.

– وإذا رآك أحدٌ هنا، ماذا سيقول؟!

– كل ما أريده أن أراك ونتكلم وحدنا، فأنتِ أغلى شيء في حياتي.

– وأنتَ، الله يعلم معزتك عندي، بس الظروف يا عمر.

– خلينا نلتقي هنا عندما ينام أهلك، الليالي الباقية لي في السورجة؟!.

– مستحيل يا عمر، أنا ما توقعت منك هذا الطلب!

– أرجوكِ يا آسية لا تفهميني غلط، أريد أن أشعر أننا وحدنا ونتكلم على راحتنا.

– ممكن أجلس معك هنا لما يكون أبي ونافع في صلاة العشاء فقط.

– لكن الوقت قصير لا يكفي، ولن أشبع من كلامك.

– أنا والله كمان، بس الظروف يا عمر.

– أبي جاء، أبي جاء، بكرة أشوفك مع السلامة.

– انتظري لحظة أرجوكِ.

– سأنتظرك هنا في نفس الوقت. قالتها وانسلّتْ إلى المطبخ.

بقي في مكانه لحظات، ثم عاد من طريقه، وشعور بلذة اللقاء، يكادُ يقلُّه عن الأرض.

قضى عمر تلك الليلة يجترُّ نشوة لقاء آسية، وكلامها، يترقَّب موعدها، وينتظر مساء اليوم التالي، حتى يلقاها، ثم يأسف على ذهاب يوم من الأيام المعدودة الباقية له في السورجة. في الليلة الثانية تشعَّبتْ بهما دروب من أحاديث الحب والمستقبل. شعرت آسية برغبة في الكلام والاستماع، ولكن المطوِّع ونافع عادا من المسجد، وافق إلحاحُ عمر رغبةَ آسية في أن يطول لقاؤهما، ومن تلك الليلة صار لقاؤهما يمتدُّ من منتصف الليلِ حتى أذان الفجر، كان الوقتُ يمضي سريعاً، في حديث الذكريات، والآمال والأحلام، استمعت بدهشة كبيرة لحديثه عن المدينة، والتلفزيون، والأنوار، والمعهد والطلاب والمعلمين.

أسِفَ عُمر لأن هذه ليلته الأخيرة في السورجة، لم يكن نسي ذلك من قبل فهو يعد الليالي، ويقلقهُ اقترابُ موعدِ سفره، ولكنَّ هذه الليلة لما حلَّت أصبحتْ مفزعةً لهما، وكان صوت المطوع وهو يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويكرر التسابيح، والتعاويذ، والحوقلة، في طريقه ليؤذن لصلاة الفجر مؤْذِناً بنهاية لقائهما الأخير، قال عمر:

– تصدقين يا آسية، أن هذه آخر ليلة لي في السورجة؟! قالها وهو يقترب منها ويحسَّ أنفاسَها.

– سأفتقدك يا عمر، ولن أنسى هذه الليالي، وسأنتظر عودتك بشوق الدنيا.

اقترب منها قبلَها، أسلمته خدَّها وأنفاسُها تتلاحق سراعاً، تذوَّق على خدها ملوحة دموعها، أراد أن يُطوقها بذراعيه، ولكنها جعلت كفيها في صدره، فقنع منها بهذه القبلة اللذيذة.

في طريق عودته لامَ نفسَه على تأخيره هذه القبلة حتى اللحظات الأخيرة، شعر بحزنٍ لدموع آسية، ولكنَّ هذه الدموع، زادتْ تعلُّقَه بها. خطر له أن يؤجل السفر أسبوعاً آخر ولكن بأي حجة، والدراسة تبدأ بعد غد، وقد علم أهله وأهل نافع بضرورة عودتهما للمدينة. خطر له أن يترك الدراسة، ارتاح للفكرة التي تبقيه بجوار آسية.

يتقلَّب عمر في فراشه ولايزال يتذوَّق ملوحة دموعها، ولذة قبلتها، وحرارة أنفاسها. تعبث به الحيرة؛ هل يترك آسية التي منحته قلبها وخدَّها، ويغادر إلى المدينة التي لم تأبه لمجيئه، ولا حزنت لرحيله، لا فهمته ولا فهمها، ولكن مستقبله مرهونٌ بالدراسة، ولن ترضى آسية أن ينقطع عن دراسته.

(12)

أول خبرٍ نقله عمر لعمه (أبوجمال) من أخبار السورجة كان مرض جدته حالية، حيثُ تفاجأ عمر بمرضها عند عودته للسورجة. حكى لعمِّه أنَّه اقترح على أبيه نقلها لمستشفى المدينة، ولكنها رفضت الفكرة تماماً، ونفثت غضبها من إلحاحهم بقولها: إذا كنتم عجزتم عن رعايتي، فأنا قادرة على خدمة نفسي، اتركوني على نظر الله. فلم يملك أبو عمر إلا الإذعان لرغبتها.

أسِفَ أبوجمال لعدم علمه بمرض أمِّه طوال الفترة الماضية؛ كان عليك أن تعود لتخبرني بمجرد وصولك. لم يجد عمر ما يقول لعمه، فهذه أول مرةٍ يوجِّه له تأنيباً مباشراً. من ساعته غادر أبوجمال إلى السورجة، طلب عمر مرافقته، للاطمئنان على جدته، آملاً أن يظفر بليلة أخرى في السورجة يلتقي فيها آسية، ولكن عمه رفض الفكرة، قائلاً: انتبه لدروسك، يومان فقط وأعود وأطمئنكم عليها.

بعد يومين عاد أبو جمال، لا ليطمئنهم على أمه، ولكن

ليأخذهم للإقامة في السورجة أيام العزاء. ذاكرة عمر تصب عليه ملامح جدته الطيبة، وكلماتها، ومواقفها، غمره الحزن كما لم يغمره من قبل. يغيب الموت حتى ننساه، ثم يأتي فيسكن كل ثواني حياتنا. ارتبط الموت بميلاد عمر، وهاهو يتتبع الأشخاص الذين ألفهم، جده عمر، والآن جدته الطيبة الحنون حالية. من يحدثه عن الماضي وعن جَدِّهِ عمر بعدها؟! لم يستطع تخيل البيت من دونها. انشغل تفكيره طول الطريق بذكرياتها؛ يتذكر قولَها له كلما حاول أن يتصنع الفهم أو المعارضة: (يا ولدي رأسك في غفرة). يتساءل كيف هي الآن؟ ماذا تفعل في مكانها الجديد؟ كان كمن فقد أمَّه. مسكينة فضَّة، فقدت أخاها المقتول، ثم فقدت أبويها والآن تفقد أختها الوحيدة.

يخيِّم الحزنُ على السورجة، فأهل السورجة ينسون مشكلاتهم الصغيرة، ويشتركون في مواسم الأحزان والأفراح، ثم يعودون بعد ذلك لما كانوا عليه، حتى يحين فرحٌ أو حزنٌ جديد. الشيء الذي عجب له عمر أن جدَّته فضَّة استطاعت مواجهة الموت بقوة، فهي التي تُسَلِّي الباكيات من حولها، وتحكي لهنَّ الرؤيا التي رأتها البارحة: «رأيت حالية وقد عادت طفلة جميلةً، تركض في أرضٍ معشبةٍ كسجادةٍ خضراء، وأمي تناديها باسطةً لها ذراعيها، أخذتها أمي في حضنها، وطارت بها حتى حجبتهما عني سحابة، فلم أعد أراهما؛ مازلت أسمع ضحكات حالية من خلف السحاب ترن في إذني. لن أحزن عليها وهي في حضن أمي. ما يُحزنني فقط أنني لا أعرف متى سألحق بها في جبل حالية، فقد أمسيتُ غريبةً في السورجة».

مضتْ الأيام الثلاثة دون أن يخطر ببال عمر أن يتسلل إلى بيت آسية، فلم يعد يفكر إلا بجدته حالية، وكيف تنام وحدها في سفح جبل حالية. في طريق العودة إلى المدينة، لم يكن يشعر بالحنين للسورجة، فهي تُذكِّرُهُ بجدتِه حالية. في السورجة يشغله هاجس الموت، فلايزال يتذكر تلك الليلة التي بطش فيها الموت بحسن الذيب الذي لم يبلغ الثلاثين: كان شيئاً مفزعاً، باغته المرض، ولم يمهله سوى أشهرٍ لتتلاشى كلُّ علامات الفتوة التي كانت تبدو عليه، ويتحول إلى هيكلٍ عظمي. كان يتحدث إلى زواره بثبات، كان شجاعاً في تلقي جرعات الموت المريرة. في ليلة ماطرة وعاصفة، كتلك التي ولد فيها عمر، غادر حسن الذيب السورجة، إلى جبل حالية، ترى هل هو قريبٌ من جدته حالية الآن؟ هل يشعر بانضمامها إليه؟.

لم ينس عمر منظر حسن الذيب المُسَجَّى على سريرٍ يتوسطُ غرفةً حزينةً، قبل أن يحمله الرجال على رقابهم إلى جبل حالية. تلقَّى عمر موت حسن الذيب بشعورٍ غامضٍ، لم يستوعبه، غير أنه اقتضى منه المداومة على الصلاة مع والده في المسجد أياماً، بعد ليالٍ من الأرق والأحلام المفزعة.

يتذكَّر مشهداً آخر للموت الذي يخطفُ الناس، دون أن يقف له أحد، كان بعد رحيل حسن الذيب بسنتين، حين تصايح الناس في السورجة قبل طلوع الشمس لدفن تركية الأهدل، زوجة سالم المهدي التي ماتت وهي تلد.

عاش عمر يومها مأتم أمِّهِ، وكأنها التي على النعش فوق

الرقاب، وكأنها التي تنسلُّ إلى رحمِ الأرض. كان زواجها فرحاً بين مأتمين، بين مأتم حسن الذيب ومأتمها. يتذكرها جيداً فقد شاهدها مراتٍ عديدة على البئر، لم ينس قبلتها التي أخجلته عندما لقيته مع زوجة أبيه على البئر، كانت تراه طفلاً ويرى نفسه رجلاً، فاحمر لقبلتها وجهه، كوجه آسية عندما قبَّلها القبلة الأولى. لقد اختارها الموت بعناية.

تركية الأهدل أجمل فتيات السورجة، ظفر بها سالم المهدي، برغم أنها كانت تُحبُّ حسن الذيب، ولكن الموت سبقها إليه، لم يمضِ على وفاته شهران حتى خطبها سالم المهدي. رفضت الزواج برغم ضغط أهلها عليها، فسالم المهدي قد ورث عن أبيه مزارع كثيرة، إلا أنه لم يكن محبوباً، ولا محمود السيرة. هناك إشاعات سَرَتْ بين النساء في السورجة، أن لسالم المهدي علاقة بموت حسن الذيب، ولكن لا أحد يستطيع تحديد العلاقة. هناك إشاعة أخرى تقول: إن سالم المهدي: استعان بمشعان المشعوذ، لتقبل به تركية الأهدل. شعر عمر بوجه شبه بينه وبين (سعدية) بنت سالم المهدي، فأُمُّه وأُمُّها ودعتا الحياة في ساعة قدومهما إليها.

(13)

استيقظ جمال على صوت عمر يصرخ، فزَّ إليه:

– استعذ بالله.. قرِّب له الماء، شرب عمر ولايزال نشيجه متصلاً.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، توكلتُ على الله، يحاول عمر أن يتماسك، وهو يشعر بأن صورته قد تَهَشَّمَتْ في عيني جمال. كابوس مُفزع، لا يُحتمل.

– هذا مجرد حلم يا عمر، وانتهى انسَ الموضوع، نم الآن وبكرة تحكي لي، ماذا رأيت؟

– لن أنام فسيعاودني الكابوس، اجلس أحكي لك الكابوس الفظيع الذي أفزعني.

– تفضَّل قل.

– رأيت حسن الذيب.

– من حسن الذيب؟

– شابٌ من السورجة مات منذ عشر سنين. رأيته يقاتل سالم المهدي. ليأخذ منه زوجته تركية الأهدل.

– يا أخي سالم المهدي ليس متزوجاً.

– كان متزوجاً تركية الأهدل التي ماتت وهي تلد سعدية.

– طيب وبعدين؟

– «انتزعها منه، وعاد سالم فشدها بشعرها، واستعادها، ولكنها تشبثت بحسن الذيب، وعادت إليه مرة ثانية، وحملها بسرعة جهة جبل حالية، فلحقه سالم المهدي، وضربه من الخلف، فسقط حسن الذيب وعاد بها سالم المهدي رغماً عنها، ولكن حسن الذيب استعادها مرةً أخرى، وسالم المهدي يمسك بشعرها، والدم ينزف من فمها وأنفها، وفجأة أطل الساحر مشعان من قمَّة جبل حالية، وصل إليهم في لمح البصر، هدأهم، اقترح أن يقسم تركية الأهدل، فيأخذ حسن الذيب نصفها، وسالم المهدي النصف الآخر، ثم رأيت سالم المهدي يحمل جسدها بلا رأس على كتفه، يتجه به نحو بيته، والدم ينزُّ من رقبتها على ثيابه، بينما يحمل حسن الذيب رأسها بين يديه، وشعرها يغطي وجهها، ويجر أطرافه على الأرض، متجهاً بها نحو جبل حالية. رأيت آسية أيضاً تركض خلف حسن الذيب، تجمدتُ في مكاني، أنظر إليهم مذعوراً، حاولت أن أصرخ فلم أستطع، وشعرت بأن لساني لا يتحرك في فمي، وأنفاسي لا تعود إليَّ».

شرح جمال معاناة عمر لوالديه، فعمر لا يستطيع النوم، تتعاقب عليه الكوابيس المفزعة، حتى أوشك على الانهيار، صار

يتوجس من المساء، ويبدو عليه الذهول من بعد العصر، ثم يقضي المساء منطوياً كئيباً. طلب أبوجمال من عمر أن ينشغل بدروسه، وبمشاهدة التلفزيون، وبالقراءة التي يعشقها. لم يعد عمر يميل إلى شيء من ذلك. صار ينزعج كلما رأى زملاءه يضحكون بينما هو عاجز عن مجرد الابتسام.

عندما اشتكى أبوجمال حالة ابن أخيه لزملائه في العمل قال أحدهم: ابحث عن شيخ يقرأ عليه؛ فالقرآن شفاء لما في الصدور، عندما يقرؤه الصالحون ويدعون الله للمريض، فإن ذلك مظنة الشفاء بإذن الله.

– تعرف أحداً من هؤلاء الصالحين؟

– أعرف كثيراً من الصالحين والحمد لله، ولكني لا أعرف أحداً ممن يرقي الرقية الشرعية.

(14)

أسبوعان قضاهما أبوجمال يبحث ويسأل في المدينة عن معالج بالقرآن، ولم يعثر على أحد. بينما تزداد حالة عمر سوءاً، قرر أن يرسله مع جمال إلى السورجة، لعله يرتاح قليلاً قريباً من والده وإخوته.

لم تكن السورجة خضراء زاهية كما عهدها عمر، ولا سماؤها صافية، حتى أشجارها فقدت رونقها. ينظر عمر جهة السَّفْح حيث ترقد جدته حالية، وتركية الأهدل، وحسن الذيب، وأُمه. يحكي لجمال ونافع وقد صحباه إلى السورجة: هنا حصلت المعركة بين حسن الذيب وسالم المهدي، من ذاك الجبل جاء مشعان، من هنا مشى حسن الذيب برأس تركية الأهدل، ومن هنا مشى سالم المهدي بجسدها.

استغرب أبو نافع مجيء نافع في هذا الوقت، فلم يمضِ على بداية العام الدراسي سوى أسابيع. أخبره نافع بحالة عمر، توضأ واتجه برفقة نافع إلى المسجد فصلى بالناس العشاء، ثم استوقف (أبو عمر) ورافقه ليطمئن على عمر، فوجَدَهُ مستلقياً

على ظهره ينظر إلى السقف بعينين واهنتين، وإلى جواره جدتُه فضَّة، فسلَّم وبادر إلى عمر فوضع يده على صدره وحال بينه وبين القيام، فأمسك عمر كفَّه وقبَّلها. جلس إلى جوار عمر وطلب ماءً فشرب منه ثم قرأ آياتٍ، ثم بلَّل يده ومسح بها وجه عمر، رفع رأس عمر قليلاً على ذراعه وسقاه من الماء ثم غسل يده بالباقي ودَلَكَ بها صدره، وهو يقرأ آيات ويكررها. بدأ عمر يشعر بارتياح، افتقده منذ أسابيع، يشعر بسكينة تغشاه، ورغبة ملحة في البكاء، بدأ الخدر يتسلل إلى كلِّ أجزاء جسده، جفناه يثقلان، يوشكان على الإطباق، يتذكر آسية، ملامحها الجميلة منديلها الأصفر، ضحكتها التي تشعُّ من عينيها، ينظر إلى وجه أبيها، ينتابه شعور بتأنيب الضمير، يعود فيفتح عينيه، يحدِّق في وجه المطوع، يحدِّثُ نفسه: « أنا لا أستحق ما تفعل أيها الرجل الطيب، يصرخ: أنا خائن..أنا خائن..أنا خائن؛ يرفع المطوع صوته بالتلاوة، بينما يصرخ عمر بصوتٍ أعلى يحاول النهوض، فيمسكه المطوع بكلتا يديه، يعاونه أبو عمر ونافع، بينما ترفع فضَّة كفيها وعينيها الدامعتين جهة السماء. يسترخي ويغمض عينيه، يخفض المطوع صوته، ويستمر في التلاوة، يطلب من الجميع مغادرة الغرفة. خرج نافع وجمال، أما فضَّة فقد بقيت إلى جوار عمر، أشار لها أبو عمر بالخروج فقالت: لن أتركه، يكفي ما لقيه في الغربة بعيداً عني، فأومأ المطوعُ بالموافقة، واستمر في القراءة، يكرر الآيات، ويدعو بالشفاء لعمر اليتيم الضعيف الفقير إلى ربه، البريء من الذنوب والمعاصي الذي لم يتلوث بعرض هذه الحياة.

عندما عاد نافع إلى أهله، سألته زوجة أبيه عن عمر، تستمع آسية بلهفة، وهو يشرح لعمته معاناة عمر، خلال الأيام التي قضاها في المدينة. قالت: مسكين عمر موت جدته حالية أثّر فيه. كان يحبها ويراها كأمه، بينما تنظر إلى آسية، تلمح على وجهها أثر كلام نافع؛ وقد شعرتْ بما تُكِنُّه لعمر منذ جلسة السطح عند عودة عمر ونافع من المدينة في إجازة نصف السنة، فلم تستغرب أن تلمح الدموع في عينيها، وتلك لغة تفهمها النساءُ، وإن لم يشعر بذلك نافع.

استيقظ أبو عمر لصلاة الفجر ليجد (أبو نافع) جالساً بجوار عمر الذي يغطُ في سُباتٍ عميق. وكذا فضَّة التي غلبها النوم، فأسندتْ رأسها إلى الجدار ونامت. ذهب الاثنان لصلاة الفجر، وعادا ليجدا عمر لايزال نائماً، ناداه أبوه ليقوم للصلاة، فأسكته المطوِّع:

– اتركه ينام.

– والصلاة؟!

– الولد لم ينم منذ أيام، وعلاجه النوم، فلا تقطع علاجه.

– والصلاة؟

– يصلي عندما يستيقظ، فالله مطِّلِعٌ على حاله، وهو الغفور الرحيم.

بقي عمر وجمال ونافع في السورجة يومين، استعاد خلالهما عمر شيئاً من صحته، وشعر بكثير من الراحة. قطع

على نفسه عهداً أنه لن يُقبِّل آسية ولن يضمها، إلا بعد زواجهما، فموقف المطوع ونافع لا يصح أن يُقابل بالخيانة. كان نافع في انتظار جمال وعمر ليغادروا إلى المدينة. عندما رأى المطوع عمر يحمل حقيبته، بادره:

– ما شاء الله، تبارك الله، أنتَ اليوم مثل الحصان يا عمر.

– هذا بفضل عنايتك يا عم.

– أستغفر الله يا ولدي، هذا بفضل الله، هو الذي جعل القرآن شفاءً لما في الصدور. وعليك بآية الكرسي عند النوم وبعد كل فريضة، فإن لك بها حارساً من الملائكة، وطارداً للشياطين، وعليك بسورة الإخلاص والمعوذتين، في الصباح والمساء، فإنها تكفيك من شرور كلِّ شيء، وتحفظك من شرِّ الجانِ وعين الإنسان. الله الله يا أولادي في صلاتكم ودروسكم، أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

بينما نافع يُعدُّ حقيبته، وأبوه يُعطيه مصروف الأسابيع التالية. تحيَّن عمر غفلتهما، ودسَّ ورقة تحت الفراش الذي يجلس عليه، مشيراً لآسية، فيما كان جمال يحاول أن ينشغل عنهما، بتأمل سقف البيت القديم الذي تتقاطع فيه السواري. خرج الثلاثة، وتبعهم أبو نافع لتوديعهم، فبادرت آسية فأخذت الرسالة، وقرأتها:

«حبيبتي آسية. لن تكفي كلُّ ورق الدنيا للكلمات التي يمكن أن تعبر لك عن حبي، ولستُ في حاجة إلى تلك الأوراق، ولا أنتِ في حاجةٍ إلى تلك الكلمات، فنظرة المحب تغني عن كل الكلمات.

حبيبتي آسية. لن أودعكِ فأنتِ معي في كُلِّ اللحظات، في يقظتي ومنامي، في السورجة وفي المدينة، وأقسم لكِ أن لذة قبلتك تجري بين شفتيَّ وقلبي..

حبيبتي آسية. لقد تأمَّلتُ بلذة تلك اللقاءات الجميلة التي تساوي الدنيا، ولكنني لَمَّا تذكرتها وأبوكِ إلى جواري، والقلقُ في عينيه، والشفقة تملأُ كلماته، وتذكرتُ كم كان لي منذ الطفولة أباً، وزوجته الطيبة أُماً، كما كان نافع لي أخاً، فأجازيهم بالتلصص على بيتهم، وأقبل بنتهم، لقد احتقرتُ نفسي، ولم أجد ما أسكتُ به ضميري إلا العهد الذي أخذته لحظتها على نفسي أن أقاوم رغبتي هذه، وفاءً لموقفه النبيل، ولموقف نافع الذي وقف معي في محنتي؛ فلنؤجل ذلك حتى نرتبط بالزواج عما قريب، إلى اللقاء يا آسيتي أعني آسرتي، إلى اللقاء يا أعزَّ النساء، بل أعزَّ الناس جميعاً».

رآها هذه المرة بعينٍ غير التي رآها بها على سطح منزلهم منذ شهرين. رآها آسية بنت المطوع، الرجل الطيب التقي الذي تتنزل على يديه الرحمة، والطمأنينة، والسكينة؛ رآها أخت نافع الصديق الذي ترك دراسته وأصرَّ على العودة برفقته إلى السورجة، رآها الحبيبة وزوجة المستقبل، ولا شيء غير ذلك. حتى وهو يدسُّ لها الرسالة تحتَ الفراش، لم يكن يشعر بتأنيب ضمير، فهو يريد أن يقطع صلةً لا يراها بريئةً، ويوثِّق صلته البريئة بآسية.

الهدوء الذي يعيشُهُ عمر الآن في جبل حالية يذكِّره بتلك

الليلة التي نعم بها في السورجة، تغشاه سكينة القرآن، ويد المطوع تمرُّ بهدوء فوق صدره، بعد ليالي السهاد التي قضاها في المدينة. كم من العمر عاش بعد تلك الليلة لم يتذوَّق هدوءها؟! يعتقد أنَّه لو كانتْ وسادتُهُ الرماديةُ هنا لنعمَ بالقدر نفسه من الهدوء والسكينة. عندما رجع بعد تلك الليلة إلى المدينة، لم يجد روحه السابقة، فكانتْ أيامُهُ رتيبةً متشابهة. لولا رعاية أسرة عمِّه، ووحشة السورجة بعد جدته حالية لكان تركَ المدينة ورجعَ إلى السورجة، ليقترب من آسية ووالدها الطيب؛ الذي ذاقَ الطمأنينة بجواره في ليلة السورجة تلك.

عندما رجع للمدينة حاول إشغال نفسه بالقراءة. لما انتهى من قراءة كتب عمه ومجلاته التي يمتلئ بها دولاب التلفزيون، توصَّل بمعونة أستاذ الأدب إلى طريقة مناسبة لاستعارة الكتب مجاناً من صاحب مكتبة بجوار المعهد؛ كان البائع يختار له الكتب الجديدة، ثم أصبح يشارك في الاختيار، ويحدد الاتجاه الذي يرغب القراءة فيه، ويتعرف إلى بعض العناوين من مراجع الكتب التي قرأها، ويطلبها بالاسم إن وجدها. قرأ في أحد تلك الكتب عن مرض (الاكتئاب) الذي يظهر في صورة مزاج مضطرب، وشعور بالنكد، واليأس والقلق، والتوجُّس، والخوف من المستقبل، ومشاعر التهديد والإحباط. شخَّص الحالة التي مَرَّتْ به، فالكتاب إنما يصف حالته تماماً، وإن كانت قد خفتت بعضُ تلك الأعراض، على إثر قراءة المطوع ودعائه، إلا أنها لاتزال مشاعر مختبئة كالجمر تحت الرماد. عزا ذلك الشعور إلى موت جدته حالية، فتعلُّقُهُ بها لا يقل عن تعلقه بجدته فضَّة التي رعته منذ لحظة ميلاده.

والآن يعود عمر السورجي للسكينة التي لا يتذكر أنها مَرَّتْ به في حياته سوى ليلة واحدة. لا شيء ينقصه الآن ليعيد تلك التجربة إلا أن يستلقي على ظهره ويتوسَّد وسادته الرمادية، التي لا يلذ له النوم إلا عليها. يبدو تحقُّق ذلك مستحيلاً.

(15)

– وماذا يعيب سالم المهدي؟!

– اتق الله يا رجل، عمره فوق الأربعين. وآسية لاتزال صغيرة

– هل نسيتِ أني تزوجتك وأنا أكبر منكِ بعشرين سنة؟

– وهل تقارن نفسك بسالم المهدي؟! لو كان شاباً، فهو لا يستحق آسية.

– عنده مال وحلال وبيت قريب يمكننا الاطمئنان على بنتنا، فلن يسافر ويتغرب بها كما يفعل شبان اليوم.

– ماذا لو رفضتْ الزواج به.

– ستقنعينها.

– أعوذ بالله، لن أفاتحها. أنا لا أطيق أن أذكر اسمه على لساني. ولو طلبتْ رأيي فسأقول لها: إن سالم المهدي ليس فيه خير، ولا منه خير. الشور أمانة.

– ولكنكِ تضرينها بهذا الكلام.

– ليس من ضرر أشد من زواجها بذلك الخسيس.

– إي والله، خسيس، يأتيني يخطب بنتي برفقة مشعان المشعوذ؛ هل هناك خسة بعد هذا؟

– يعني تزوجها له خوفاً من مشعان؟!

– خوفاً عليها.

– تفاهم معها ولن أتدخل، لو كانت بنتي لفضلتُ لها الموت على سالم المهدي.

انفرد المطوع بآسية ليعرض عليها الزواج بسالم المهدي، فصرختْ من هول المفاجأة، وانهارت باكيةً، دون أن تجيب بكلمة. قطع حديثه عندما قامت من جواره، وهي تموء كقطة أُحْكِمَتْ حولها المنافذ، يعتصره الألم، والشعور بالعجز، وهو يسمع نحيبها. أنَّب نفسه لأنَّه طرح الأمر عليها، ثم قال: كان لا بُدَّ من إبلاغها.

تحاول زوجة المطوع تهدئتها: يا بنتي لا أحد سيجبرك على الزواج به.

– ولكن أبي مقتنع بزواجي به.

– لا بُدَّ أن يُبلغك، وأنتِ تفكرين، وتقررين.

– لن أقبل لو قتلوني.

– لا أحد سيقتلك، من أجل سالم المهدي. فأبوكِ أدرى بمصلحتك.

– أنا أعرف مصلحتي، ولكنه يستعجل الخلاص مني.

– عيب عليكِ يا آسية هذا الكلام، يا بنتي أنا وأبوكِ نخاف عليك، وأشعر بميلك لعمر ولكن سالم المهدي خسيس، وأخاف عليكِ أنتِ وعمر ما حدث لحسن الذيب، وتركية الأهدل. فالناس يتهمون سالم المهدي ومشعان بموت حسن الذيب، لأنها أعجبته تركية الأهدل، وهو يعرف ارتباطها بحسن الذيب، وفعلاً تزوجها، وماتت وهي تلد بنته سعدية. وأهل السورجة يعرفون ذلك. فكري يا بنتي، الله يختار ما يعلم لكِ فيه الخير.

تتحاشى آسية النظر إلى أبيها، أو الجلوس معه خشية أن يطلب رأيها في سالم المهدي، شغلها هذا الموضوع كثيراً، وخاصة بعد كلام عمتها، وقد رأت مشعان وسالم المهدي عند قدومهما إلى أبيها بالأمس، فهمتْ مغزى أن يكون برفقته مشعان. قلقتْ بشأن القادم، وشعرت بأن أحلامها تفلت من بين يديها.

(16)

ترددت زوجة المطوع قبل أن تحكي له الفكرة التي خطرت لها، وهي تُقدِّم له قهوة الصباح، وهي تلمس معاناة آسية، وتعرف ميلها لعمر:

– ترى أحوال آسية ما تطمِّن.

– أشعر بهذا، ولكن نصبر ونتوكل على الله، وهو يدبرنا.

– لازم نخلِّصها من هذا الهم، فهي تشك أنَّا نرغب التخلص منها.

– أنا مهموم أكثر منها، اصبري وسلِّيها، ما يصير إلا كل خير إن شاء الله.

– ما رأيك لو تروح لمشعان، وتعطيه ما يطلب ويضمن لك ما يؤذينا، ولا يساعد سالم المهدي؟

– أعوذ بالله، اتقي الله، استغفري الله. اللهم إني أبرأُ إليك أن أقصد ساحراً، أو أعتقد فيما يقول ويفعل. ما تدرين يا بنت

الحلال أن «من أتى ساحراً أو عرافاً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » هل تريدين أن تحبطي عملي، وتفسدي ديني؟! لا يجلب النفع ويدفع الضر إلا الله تعالى. اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك فنهلك. حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم.

لزمتْ الصمتَ حتى تهدأ عاصفة غضبه، فقد كانت تتوقع رفضه، ولكنها لم تتوقع أن يكون ردُّه بهذه الحدَّة. ترك القهوة وحمل عصاه وخرج والشمس تنثر أشعتها الأولى على السورجة وأهلها، متجهاً إلى بيت سالم المهدي.

لَمْ يجد سالم المهدي في بيته، فطلب من سعدية أن تبلغه بمجيئه، ورغبته في أن يلحق به عند عودته. التفت أبو نافع للمصلين بعد الفراغ من صلاة العصر ليجد سالم المهدي في الصف وراءه، عرفَ أنه جاء لمقابلته، فقلما يصلي سالم المهدي في المسجد. اصطحبهُ أبو نافع إلى بيته، وهناك أبلغه بعدم رغبة آسية في الزواج، وحرصها على إتمام دراستها الثانوية.

– الدراسة ليست مشكلة، فسألتزم لك أن تكمل السنة المتبقية لها في الثانوية.

– ولكنها ترفض الزواج من أصله يا سالم، ولا أحبُّ أن أكرهها.

– الظاهر أنها ترفضني أنا، وتتحجج بالدراسة.

– الزواج قسمة ونصيب يا سالم، وما لك نصيب فيها، ولعلَّ الله يرزقك خيراً منها.

– وماذا يقول الناس عندما يعلمون أنها رفضتني؟ هل ترغب أن تضحِّك الناس عليَّ يا أبو نافع؟!

– يا سالم هداك الله، الزواج قسمة ونصيب، وليس كُلُّ من خطب زُوِّج، ولك عليَّ ألا يعلم أحدٌ بخطبتك.

– يا أبو نافع، سأعطيك ما تطلبُ من المال، أو المزارع؛ مهراً لآسية.

– يا سالم، لو قبلتْ آسية الزواج فلن آخذ مهراً إلا المعروف بين الناس، ولكنها رفضت الزواج.

– هل تنوي بنتك البقاء طول عمرها بلا زواج؟!

– عندما يأتي نصيبها فستأخذه.

– لا يا (أبونافع)، إذا لم تتزوجني فلن تتزوج في الدنيا؛ فما عاشت التي ترفضني، ولا عاش الذي تُفضِّله عليَّ.

– أعوذ بالله منك، ما تستحي من هذا الكلام؟!

– اللي عندي قلته لك. ولو غيرتْ رأيها بلِّغني. قالها وهو يخرجُ من بيت المطوِّع.

– لا حول ولا قوَّة إلا بالله، أعوذ بالله منك.

حاولت زوجة المطوِّع أن تصرف آسية عن الاستماع عندما

سمعت تهديد سالم المهدي، ولكن آسية أصرَّتْ على الاستماع إلى النهاية. كانت تنظر إلى عمتها، وهي تضعُ يدها على خدِّها، مدهوشةً من جرأة سالم المهدي، وبجاحته، وهو يهدِّد آسية ومن يحاول الزواج بها، بما يؤكد الشكوك حول علاقته بموت حسن الذيب. أسرعتْ آسية إلى غرفتها، وألقت بنفسها على فراشها، وهي تنتحب. بينما تحاول زوجة المطوِّع تهدئته، حيثُ كان يغلي من الغضب.

– لا تهتم لأكاذيب سالم المهدي، فلن يستطيع فعل شيءٍ مما هدَّد به.

– لا حول ولا قوَّة إلا بالله. أين آسية؟ هل سمعت كلامه؟

– لقد سمعنا كُلَّ شيء.

– طمنيها أني لن أزوجها هذا الفاجر.

(17)

ساد الوجوم والصمت بيت المطوِّع، فلا يتكلم أحدٌ إلا لضرورة، ولم تملك زوجتُه إلا احترام صمته، فلم تكن تبادره بالكلام. تحاول الكلام مع آسية، لتهدئها وتطمئنها كما أوصى أبوها، ولكنها لا تجد أثراً لما تقول.

– يا بنتي لا تهلكي نفسك، فلن يجبرك أحد على الزواج بهذا الفاجر.

– لقد حلف ما أتزوج غيره. كما فعل مع تركية الأهدل وحسن الذيب.

– يا بنتي الحكم لله ليس لسالم المهدي، توكلي على الله، وبإذن الله تكونين من نصيب اللي تحبين.

– أخاف عليه من سالم المهدي ومشعان، يقتلونه مثل حسن الذيب، ثم يسحرني ويتزوجني، مثل ما فعل بتركية الأهدل. قالتها وهي تضع رأسها على كتف عمَّتها.

– يا بنتي توكلي على الله، ما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

– أخاف يكون هذا المكتوب يا عمَّة!!

وجدتْ آسية نفسها في خضم معركةٍ لا خيار لها في خوضها أمام عدوٍ شرس، لا يتوانى في استخدام أقذر الأساليب في تحقيق أهدافه. لم يستطع والدها إخفاء تردده وخوفه عليها، رأت أحلامها توشك أن تتحطَّم، وكلَّ الصور التي رسمتها لحياة سعيدة مع عمر قد تبدَّدتْ. استرجعت كلام عمتها عن حسن الذيب، وحبيبته تركية الأهدل التي أصبحت فيما بعد زوجة سالم المهدي، وأم بنته الوحيدة، تمثَّل لها الأمر بين التضحية بحب عمر خوفاً عليه، والقبول بحياة تعيسة مع سالم المهدي، أو أن تكرر مأساة حسن الذيب وتركية الأهدل. تخيلت النهاية البائسة: يموت عمر، وتتزوج سالم المهدي، وتموت في أثناء الولادة، وتعيش بنتها يتيمة يسومها سالم المهدي العذاب كما يفعل ببنته سعدية.

لم يسبقْ أن تعرَّضتْ آسية لأزمة من هذا القبيل. تحاول عمتها تهدئتها دون جدوى. لم تعد تستطيع النظر إلى أحد أو الاستماع لأي صوت؛ ولا التفكير في شيءٍ. شعرتْ بعجزها إزاء خصمها في هذه المواجهة. وفوق ذلك شَعَرَتْ بعجز أبيها عن حمايتها. تمنَّت لو كان نافع وعمر هنا ليشاركاها التفكير، مع أنها تعتقد أنهما سيكونان أعجز من أبيها عن حمايتها. اعتزلتْ في غرفتها، وقد شحب لونها، وظهرت هالات سود حول عينيها، لم تعد ترغب أن ترى أحداً أو يراها أحد.

مضت ليالٍ وهي لا تنام، تتوحَّد بهمومها، تسترجع كلمات

سالم المهدي، وتتخيل عينيه تقدحان الشرر، وهو يقول: « إذا لم تتزوجني فلن تتزوج في الدنيا؛ فما عاشت التي ترفضني، ولا عاش الذي تُفضِّله عليَّ».

ليالٍ من السهد، والحيرة، والشعور بالهوان. كرَّرتْ قراءة رسالة عمر: «لم أجد ما أسكتُ به ضميري إلا العهد الذي أخذته لحظتها على نفسي أن أقاوم رغبتي هذه، وفاءً لموقفه النبيل، ولموقف نافع الذي وقف معي في محنتي، فلنؤجل ذلك حتى نرتبط بالزواج عما قريب، إلى اللقاء يا آسيتي أعني آسرتي، إلى اللقاء يا أعزَّ النساء، بل أعزَّ الناس جميعاً». شعرت آسية بصدق عمر، ووثِقَتْ بإخلاصه.

فكَّرت كثيراً حتى أُرتِجتْ عليها كلُّ المنافذ، كلما واتتها فكرةٌ للخلاص أسرعَ اليأس فأغلقها دونها. خطر لها أن تنسحب من هذه المعركة الخاسرة، تمنَّت لنفسها الموت، فموتها ينجيها من تكبُّدِ خسائر هذه المعركة؛ من الاقتران بسالم المهدي، ومن عواقب رفضها له، ومن الجناية على عمر وعلى أسرتها، تمنَّت الموت ولكن الموت لا يأتي بالأماني. فلتذهب إليه بنفسها.

في سكون ليل السورجة، خرجتْ من غرفتها، كما كانت تخرج للقاء عمر، نظرت برغم الظلام إلى المكان الذي قضتْ فيه أمتع لحظات العمر مع عمر، جاوزت مكان لقائهما، وصعدت فوق سطح الغرفة، تتذكر مكان جلوسه وهي تُقدِّم له الشاي، نظرت إلى السورجة، لا ترى إلا حواف الجبال تمتاز عن لون السماء. أصوات نباح يتردد من أطراف السورجة، تهبُّ الرياح

فتحدث صوتاً مرعباً يختلط فيه حفيف الشجر، بصوت البوم، بنباح الكلاب. نظرت إلى النجوم وهي تمشي خطوات مترددة جهة حافة السطح المطل على شفيرٍ صخري، لم تعد ترى شيئاً فقد ملأ الدمع عينيها، ولم تعد تشعر كم يفصلها عن حافة السطح، ثم لم تعد ترى النجوم، فقد جاءت خطوتها الأخيرة نحو الشفير الصخري.

(18)

في المعهد عُرفَ أبناء السورجة الأربعة بجديتهم، واهتمامهم بدروسهم، وتقدُّمهم في مجالاتٍ متنوِّعة؛ أولهم جمال، ذو الثقافة الواسعة، خارج إطار المقرر، وإن كانت ثقافةً لا يرتضيها أكثر أساتذة المعهد، فهو شغوف بالقراءة في كتب المستشرقين، والفلاسفة، والمفكرين الغربيين، والمتأثرين بهم من مفكرين عرب. وكثيراً ما يطرح آراء مخالفة لما يقوله أساتذته في المعهد. منهم من يدحض حججه بالأدلة، ومنهم من يسكته، وفي مراتٍ كثيرة ينتهي الحوار بطرده من الفصل، وأحياناً أخرى بإحالته إلى المدير. لما يحمل من أفكار منحرفة، اكتسبها من قراءاته التي لا يستشير فيها أساتذة المعهد، ولا يأخذ برأيهم عندما يحذرونه من بعض الكُتَّاب الذين عُرفوا بطعنهم في التاريخ الإسلامي، أو الرموز الإسلامية، أو في الشريعة نفسها. كان جو المعهد لا يتقَبَّلَ مثل هذا الاتجاه الذي كان متاحاً في الشقة التي اشترك فيها الأربعة بجوار منزل (أبوجمال). وأصبحت مقراً لمذاكرتهم، وقراءاتهم، وحواراتهم، واستقبال زملائهم. أكثر وجباتهم تأتيهم من بيت (أبوجمال)

الذي لم يكن ينزعج لخروج ولديه بصحبة نافع وعمر، فقد عرفَ حياة الجدِّ التي يشترك فيها الأربعة. كان معجباً بهذا الشباب المتوهج، كما يصفهم لأم جمال.

تأثر عمر بهذا الاتجاه الذي يرى فيه نموذجاً ثقافياً منفتحاً يشبع فضوله؛ غير أن قراءة عمر في كتب التراث كانت موازيةً لمتابعته لاتجاه جمال. لم يكن عمر يحب طرح الآراء التصادمية التي يثرثر بها جمال، ما جعله يحافظ على توازنه في نظر بعض أساتذة المعهد على الأقل، حتى كان أستاذ الأدب يضرب به المثل في الاطلاع على كتب الأدب، ومعرفة الأدباء، القدماء منهم والمعاصرين. يقول له: لن يحل مكاني في المعهد سواك، بعد أن تنهي سنوات الجامعة الأربع، سأكون على وشك مغادرة المعهد، مطمئناً أن الذي يُدَرِّسُ الأدب بعدي أديبٌ وليس مجرَّد معلم. أما نافع فكان شيخ الطلاب في المعهد بلا منازع، أثيراً لدى شيوخ المعهد، يتولى الأذان والإقامة، ويُقدِّم المواعظ المرتجلة، في طابور الصباح، وبعد صلاة الظهر، وفي كلِّ المناسبات. حظي برعايةٍ خاصة من الشيخ صالح الذي علَّمه كيف يواجه الناس، ويؤثر فيهم، ولا يتردد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. علَّمه ألا يُظهر الضعف أو اللين للعُصاة، ودرَّبه على الخطابة في مساجد أطراف المدينة، ثم أخذ يقترب به من مركز المدينة قليلاً قليلاً، ثم صار يُنيبه في إلقاء خطبة الجمعة في مسجده. عندما أنهى نافع دراسته في المعهد أخذ الشيخ صالح بيده إلى الكلية الشرعية، وعرَّف أساتذة الجامعة عليه، وتنبأ له بمستقبل عظيم. أصبح جمال وعمر يسميانه

(المطوِّع الصغير)، نسبة إلى أبيه المطوع الكبير، مع أن هذه التسمية لم تكن تروق لنافع، فهو غير راضٍ عن تساهل والده في كثيرٍ من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة كما يصفها.

أما سعيد فامتاز بحفظه لكل ما يدرس، وكلِّ ما يقوله أساتذة المعهد، لكنه امتاز فوق ذلك بهدوئه المحبَّب للأساتذة، وتَدَيُّنِه الهادئ الذي يراه بعضهم تصوفاً، وانعزالية عن تصحيح الأوضاع الخاطئة داخل المعهد أو خارجه. يبدو سعيد كمن لا يحمل رسالة، ولا يتحمَّس لقضية؛ وفي الوقتِ ذاته كان نموذجاً يُعجبُ بِهِ أكثر أساتذة المعهد وشيوخه، باستثناء الشيخ صالح؛ إذ يتمنى لو أن سعيد يمتلك مع شخصيته الهادئة حماسَ نافع، وحُبَّهُ لنشر الخير، واندفاعه في تصحيح الأخطاء. حاول سعيد أن يكون كما يُحب الشيخ صالح، ولكنه عجز عن ذلك، فأهمله الشيخ، وصار يضرب به المثل في السلبية، وعدم حب نشر الخير، وعدم الاكتراث لآفات المجتمع. أصبح نافع يعيبُ على سعيد تمييعه للدين، وقبول أنصاف الحلول، في قضايا يرى أنها لا تحتمل، إلا رأياً واحداً.

(19)

عاد نافع وسعيد من الكلية الشرعية ظهراً، ليجدا (أبوجمال) وجمال في الشقة، وقد أحضر جمال الغداء الذي أعدَّته أُمه، نادراً ما يشاركهم أبوجمال الوجبات في شقتهم، بعد قليل وصل عمر من الكلية الأدبية، بعد الغداء استأذن سعيد ليذهب للنوم، فقال أبوه: انتظر قليلاً، ثم التفت إلى نافع قائلاً: علمتُ أنَّ أختك آسية سقطت من فوق سطح بيتكم. قال عمر بدهشة وهو يقترب من عمّه: وكيف هي الآن؟ نظرَ إليه عمُّه باستغراب، فقد كان همُّهُ متجهاً لنافع. وجد مخرجاً ليوجه الحديث لهم جميعاً: كلنا مؤمنون بقضاء الله وأنتم رجال تواجهون المصاعب بقلوب ثابتة.. صرخ عمر ثانية بشكل أوشك عمه أن يفهمه: وكيف آسية الآن يا عم؟! كان أسلوب (أبوجمال) يقطع كل أمل لدى عمر في سلامتها، فعقدت الدهشة لسانه، وبقي ينتظر بقية الخبر بذهول، فيما كرَّرَ نافع السؤال نفسه. قال أبوجمال: هي في جوار ربها الرحيم.. لم يتمها حتى اقترب وضمَّ نافع إلى صدره، وطلب من سعيد أن يناوله الماء، دارت الدنيا برأس عمر، وأخذ ينتحب يهتز جميعُ جسده، جمال الذي يعرف طرفاً مما يربط عمر بآسية، أخذ بيد عمر إلى خارج الغرفة.

– تماسك يا أخي لا تجعل نافع يشعر بشيء تجاه أخته.

– هذه آسية الأمل الأخير لي في هذه الحياة.

– قال سعيد وقد لحق بهما: هذا قضاء الله يا عمر. لا بُدَّ من التسليم به، فقضاؤه كُلُّه خير.

– الخير أن تبقى حبيبتي تشاركني الحياة، أو أشاركها الموت.

– قال جمال: لا تفضح نفسك، وتفضح هذه البريئة، وتشوه صورتها أمام الناس بكشف عواطفك، يا أخي تماسك من أجلها هي.

في الطريق إلى السورجة اكتشف عمر أن نافع أقوى منه، وأنه أكثر تماسكاً ورجولة وإيماناً. يحسد نافع على إيمانه وتطبيقه لجزئيات دقيقة يعتبرها نافع ضرورات، بينما يراها عمر لا تتجاوز أن تكون من السنن، والنوافل. كثيراً ما اتهمه بالخلط في الأولويات؛ واليوم يحسده على قربه من الله، فالله يساعده في الشدة، لأنه يمتثل لأوامره في الرخاء. تيقن عمر أن الإيمان هو الملاذ الأخير الذي يمنح القوة. بدأت أعراض الاكتئاب تراوده من جديد، بدأ يشعر بخوفٍ يتسلل إلى صدره، وحزنٍ يتملَّكُه من الأعماق. لا يُطيق سماع أيِّ صوت، ولا رغبة لديه في قول أيِّ كلمة. يتوجس من المساء الذي سيحل عليه في السورجة، دون أن يكون أبو نافع إلى جواره يقرأ عليه القرآن؛ أبو نافع بحاجة الآن إلى المساعدة، فمن يقرأ على عمر في ليالي السورجة الموحشة؟ وصل أبو جمال وولداه ونافع وعمر السورجة في الوقتِ نفسه الذي وصل فيه عمر ونافع في أول عودة لهما إلى السورجة. يتذكر عمر تلك العشيَّة كأنما هي

اللحظة؛ يتذكّر مجيئها تحمل صحن الشاي والخبز، تقدمه لهم، ونظراتها تقول عنها ما يعرفه عمر، آه كم أنتِ موحشةٌ وحزينة أيتها السورجة من دون آسية؟ كم أنت بائسة ولا تُطاقين؟ ما قيمة السورجة وقد أمست آسية في جبل حالية؟! يا لقسوة الموت الذي لا يتورَّع عن البطش بفتاة في السادسة عشرة.

وجدوا الناس مجتمعين في ساحة بجوار بيت المطوع، عزَّوا المطوِّع الذي بدا – برغم اليقين والثبات الذي عُرف عنه– منكسراً مهزوماً، شاخصاً، هدته الفاجعة، قوَّضَتْ أركانه، وقد أسند ذقنه إلى يديه المعلقتين بعصاه الواقفة أمامه. تنحدر دمعات على خدَّيه، ما تلبث أن تختفي بين شعرات لحيته البيضاء.

إلى جواره يجلس أبو عمر، وكبار السورجة بمن فيهم مشعان، وسالم المهدي. لم يُطِقْ عمر البقاء في مجلس العزاء، في طريقه رأى زوجة المطوع تشير لبعض النسوة إلى مكان سقوط آسية. تجوَّل على غير هدى في طرقات السورجة. جلس على صخرة تجاور الطريق يبكي بحرقة، وتنثال عليه الذكريات؛ في هذا المكان طلبتْ منه أن يكتب اسمها، فرحتْ به برغم أنه كتبه خطأً، هنا لعبا، هنا ضحكا، هنا ركضا، وهنا وهنا.. وهناك في جبل حالية ترقد آسية، إلى جوار أمها، وأُمه، وجدته حالية، وتركية الأهدل، هنيئاً لسكان جبل حالية جوار آسية. صارت الحياة هناك، حيثُ آسية، وملأ الموت السورجة، الموت في كُلِّ دروب السورجة، وفي كُلِّ زواياها. أخذته قدماه في دروب كثيرة في السورجة، بعضها لم يسلكها منذ انتقل إلى المدينة. أخذته الدروب بلا وعي منه إلى سفح الجبل، حيث ترقد آسية. لم يكن

يعرف قبرها؛ دلَّته عليه الأغصان الخضراء التي تغطيه. لا يصدق أن جسدها اللدن، طريح التراب هنا، أهذه نهاية معقولة لآسية؟ ها هي صورة تركية الأهدل تتجدَّد عندما وضعوها، على التراب، يصرخ أحدُ الرجال: بَاشِرْ بخدها التراب، بينما يقول آخر: لا تُبَاشِرْ بخدها التراب، ترى هل فعلوا بآسية كذلك؟ هل تشعرين بي يا آسية؟! هل تملكين أن تخبريني لم ذهبتِ وتركتني؟! أين وعدك، أنك ستنتظرينني بشوق الدنيا؟ ها أنا أعود، ولا أجدك يا حبيبتي، ولا أستطيع أن أبكيك. هل هناك أقسى من أن يعجز الإنسان عن البوح بحزنه على من يحب؟! يمنعه الخوف والحياء عن أن يذرف دموعه على حبيبته إلا متخفياً! أهذه شريعتكِ أيتها السورجة؟! لا تهدئين حتى تفرقين الأحباب، ألا يشبع جبل حالية من ابتلاعنا، واحداً إثر واحدٍ؟ ابتلع أمي قبل أن تلقمني ثديها، وابتلع أم نافع وآسية، وابتلع حسن الذيب قبل أن ينعم بحبيبته تركية الأهدل، ثم ابتلعها قبل أن تجد عزاءها، في ابنتها، وابتلع آسية حبيبتي؛ وقبلهم جميعاً ابتلع حالية، لأنها أحبَّت وأخلصت ومنحت حبيبها ثقتها ونفسها. ماذا سيقول الناس عني وعنها لو أخذتُ مسدس أبي المعلق خلف باب المجلس وأفرغتُ منه رصاصةً في رأسي؟! لأستلقي على قبرها، ثم أُدفن إلى جوارها، فألقاها لتعرف أني على العهد. وأودِّع السورجة والحياة والذين يتشبثون بها بنظرة احتقار.

يكاد عمر يكونُ نسخةً عربيةً عن (فون كلايست) الشاعر الذي انتحر عند قبر حبيبته، لأنه يحلم أن ينعم بوجود مبارك بصحبتها. عدل عن هذه الفكرة، آملاً أن يبتلعه جبل حالية

مبكراً فهو يُعاني منذ الطفولة قصوراً في الشعب الهوائية، وهذا يجعله يأمل أن يدركها في الثلاثينيات من عمره. تمنى لو كان سكان السورجة من تلك القبائل الهمجية الذين يدفنون أحباب الميت معه، ليتهم يفعلون فيكون إلى جوار آسية، ولكن من يخبرهم أنه حبيبها. السورجة على عكس تلك القبائل تماماً، فهي لا ترى حبيبين إلا فرقتهما. لا يدري عمر أيهم أحقٌّ بوصف الهمجية، الذين يفرقون بين المتحابين، أم الذين يجمعونهم، ولو تحت رداء الموت؟!.

اطمأن عمر إلى أنه سيلحق بآسية قريباً، وسيترك سورجة الموت، إلى جبل الحياة، جبل حالية الذي ذهب إليه كلُّ الذين أحبهم، وكلُّ الذينَ أحبُّوا، حتى لم يعد يعرف أين الموت وأين الحياة، فمن يدري قد تكون هذه الحياةُ موتاً، وما نسميه موتاً حياة! ربما يرى سكان جبل حالية أنهم الأحياء، والباقون في السورجة أمواتاً، حتى يلحقوا بهم!!

حتى صوت المطوِّع الذي ألفته السورجة غاب مع آسية، فالذي يؤذن لصلاة المغرب غرامة الخلف. لم يحتمل عمر البقاء. يتجه الناس إلى المسجد بينما يودِّع عمر السورجة عائداً بمفرده إلى المدينة، فلن يستطيع أن يعيش ليلةً فيها. فماذا ستقول جدته فضة وأبوه لو قضى الليل ينتحب لموت آسية؟ ما أقسى السورجة على المحبين؛ تحرمهم حتى البكاء على من يحبون؛ تُحَرِّم البكاء على الرجال. في المدينة يغلق عليه بابه، ويسحُّ الدمع على حبيبته، فلا شيء يخفف الأحزان كالدموع المحرمة في شرع السورجة.

(20)

بعد انتصاف الليل وصل عمر إلى المدينة، برفقة سائقٍ فضولي؛ كرَّرَ السؤال عما يحزنه، وعمر يجيب عن جميع أسئلته بكلمتين: «لا شيء»، ولا يمنعه ذلك من تكرار السؤال، كلما نفث عمر آهةً أو أخذ نفساً عميقاً. الثَنِيَّة التي تطل على المدينة تذكِّره بأول إطلالةٍ له عليها منذ أربعِ سنوات. يتنفس بعمق، فهو يقترب من غرفته التي تمنحه حقَّه في البكاء دون أن يسخر منه أهل السورجة، ودون أن يسأله السائق الفضولي عن سرِّ بكائه، ودون أن يُساء الظن بحبيبته الراحلة آسية.

المدينة كعادتها في هذا الوقت، الأضواء تُمزِّق وجهَ الظلامِ، والسيارات لاتزال حركتها ظاهرة في الشوارع، واللوحات الإعلانية تواصل وميضها المزعج. الناس يسيرون على الأرصفة يتحدثون ويضحكون، هذه المدينة اللئيمة لا تتأثر لموتِ آسية، ولا تشاركه أحزانه، ولا تعبأ بمشاعره. في السورجة يبدو كُلُّ شيءٍ حزيناً، حتى الرجال الذين لا يبكون كانوا لا يستنكفون من إظهار الحسرة على آسية التي حملوها على

رقابهم ليقدموها لقمةً سائغة لجبل حالية. كلُّ شي حزين حتى سالم المهدي ومشعان كان يظهر عليهما الأسى. لماذا تبدو المدينة بهذه القسوة، ولا تتعاطف مع المحزونين، ولا تتألم للمتألمين؟! تحولت أشجار الشوارع الخضر بالأمس إلى أشباح تُحدِّق تجاه عمر. أمست العمارات كصناديق الأطعمة الفاسدة، تنفثُ رائحةً عطنةً لا تُطاق، والشوارع سراديبَ خانقةً بلا نهايات. كيف لهذه المدينة اللئيمة أن تشعر بموت آسية؟! إنها صورةٌ لموت المشاعر! لا بُدَّ أن يعذُرها عمر. اقتربَ من الموقف ولايزال فضول السائق يُلاحقه:

– هل ستذهب قبل أن تحكي لي حكايتك؟!

– ما عندي حكاية، كم أجرتك؟

– اللي تجيب مقبول.

– هذه عشرة.

– مقبولة، في أمان الله.

خرج عمر من السيارة يجرُّ قدميه وصورة آسية تملأ نفسه، يفكر بليلتها الأولى في جبل حالية. هل تشعر بالخوف في وحدتها؟ ترى هل تركوا شيئاً من القماش الأبيض تحت خدها الناعم؟ أم أنهم باشروا به التراب، كما كان يصرخ ذلك الرجل، عندما وضعوا تركية الأهدل في مرقدها؟ تُرى هل ستنهض آسية عندما ينصرف الناس؟ هل ستشعر بالخوف ووحشة الليل، والمكان، والوحدة؟ إني أشعر بالخوف والوحشة هنا، في هذه

المدينة التي تَغُصُّ بالناس من حولي، فكيف بآسية الرقيقة الجميلة؟ يتذكر قولها: «حرام عليك خوفتني» لمجرد أن رمى حصاةً قريباً منها، في ليلة لقائهما الأول، وهي بين أهلها، فأي خوفٍ يحيط بها في جبل حالية، في حفرةٍ ضيقة، يحيطها الظلام، بهالاته غير المتناهية؟! آه يا آسية. لو كنتُ معكِ لما اجتاحتني الوحشة التي تملأ نفسي الآن!.

في طريقه إلى شقته مرَّ بصيدلية، طلب من الصيدلي حبوباً منوِّمة، سأله الصيدلي، هل لديه وصفة؟ اضطر عمر إلى أن يحكي له حكايته، تعاطف معه الصيدلي، وقدَّم له شريطاً، ونصحه أن يأخذَ حبةً قبل موعد نومه بنصف ساعة، طلب منه ماءً وابتلع حبةً قبل أن يُغادر الصيدلية.

(21)

عندما أحس جمال بغياب عمر، عن مجلس العزاء، بحث عنه عند أهله، فعرف منهم أنه لم يمر على بيتهم. قال أبو عمر: لقيتُهُ أمس عند وصولكم من المدينة، ولم أره بعدها. اقترح جمال أن يعود إلى المدينة، فربما يكون عمر قد رجع للمدينة. لم يكن أبو عمر وأبو جمال يتوقعان عودته للمدينة، ولكن جمال أقنعهما، فبما أنه ليس في السورجة، فلا مكان آخر، قال جمال: إن لم أجده في المدينة فسأعود مباشرة، وإن غربت الشمس ولم أعد فهذا يعني أني وجدته هناك.

قال أبو جمال: هذا حل مناسب، وناول جمال ما يكفيه لاستئجار سيارة للذهاب والعودة.

في طريقه إلى الشقة كان جمال يتوجَّس خوفاً ألا يجد عمر، فذلك يفتح احتمالات مُقلقة. عندما وجد حذاءه عند الباب، تحول قلقه إلى غضب من تصرفه هذا. دخل وهو عازمٌ على معاتبته بقسوة، ولكنه وجده نائماً. ليس من عادة عمر أن يستمر في نومه إلى الظهيرة؛ ناداه مراراً، فلم يُجب، اقترب منه،

هزَّه، هزَّه بعنف، لم يفق؛ وجد إلى جواره شريط حبوب، التقطها تأملها؛ لم تكن من الأدوية المألوفة التي يستخدمها عمر لمقاومة الصداع العنيف الذي يعتاده. هزَّ عمر بعنف دون أن يجد جواباً، قرَّب أذنه من صدره، ارتاح قليلاً لسماع نبضات قلبه.

أفاق عمر ليجد عمه وجمال وسعيد ونافع يقفون إلى جوار سريره. يحاول تحريك يده فإذا هي معلقة بعبيئة المغذي، حاول أن يفهم ما يدور. نظر في عيون الواقفين حوله. تعلقت عيناه بعيني جمال متسائلةً، اقترب منه جمال، وقال: أنت بخير يا عمر، إرهاق بسيط وتقوم بالسلامة. نظر عمر إلى نافع، وفجأة انتفض وأجهش يبكي بمرارة. اقترب عمه منه يحاول تهدئته، وأخذ يصرخ: آسية، آسية، آسية، رَجِّعُوا آسية. أشار جمال لسعيد أن يستدعي الطبيب، بينما أخذ بيد نافع وخرج به من الغرفة.

– أنتَ تعرف يا نافع ماذا تعني أنت وآسية لعمر.

– طبعاً نحن أخوة. إيش تقصد؟!

– أقصد ألا تستغرب مدى تأثر عمر لموت آسية؛ كلنا تأثرنا، ولكن عمر ضعيف، أنت تتذكر حاله بعد موت جدته حالية!.

– طبعاً ما أستغرب لأن إيمانه ضعيف، ما يرضى بالقضاء والقدر، أنا تألَّمْتُ أكثر منه مئة مرة، ولكنَّي مؤمن، بينما عمر، يهزُّهُ الموت بعنف، لأنه يظن أن الذين يموتون ينتهي بهم الأمر في جبل حالية، ولا يريد أن يفهم أن الموت منفذ إلى حياة أرحب للمؤمنين.

لم يهتم جمال كثيراً لما قاله نافع، فالمهم ألا يشُك أن هناك علاقة ما بين عمر وآسية. اقترح أبوجمال أن يذهب نافع وسعيد إلى الشقة، ويُحضرا من طريقهما الغداء، بينما كان الطبيب يعطي عمر إبرة مهدئة سأل (أبو جمال):

– أنت أبوه؟

– لا. أنا عمه.

– لا بُدَّ أن نستدعي الشرطة، ويُفتح محضر.

– لماذا، الولد بخير، والحمد لله.

– هذه محاولة انتحار.

– أبداً يا دكتور، الولد أخذ الدواء بالغلط.

– ليس صغيراً حتى يبتلع أربع حبات منوِّمة بالغلط؟

– الولد يمر بأزمة بسبب موت أخته.

– ما أتحمَّل مسؤولية السكوت، فقد يكرر المحاولة، وينجح.

– أرجوك يا دكتور، ما فيه داعي للشَّوشَرة.

– قال عمر وقد هدأ قليلاً، لم أحاول الانتحار، كنت أريد أن أنام.

– قال الطبيب: حبة واحدة تكفي لتنام ١٢ ساعة.

– قال عمر: أخذت واحدةً، ثم الثانية، فلم أنم، فأضفت

إثنتين، صدقني يا دكتور.

– قال أبوجمال: خلاص يا دكتور.

– لا بأس لكن بشرط أن تعدني ألا تستخدم الحبوب المنوِّمة إلا برأي طبيب.

– أعدك يا دكتور.

(22)

برغم الموعد الذي قطعه عمر للطبيب، فإن فكرة الانتحار راودته كثيراً بعد موت آسية. يبدو له الأمر سهلاً؛ كمية من الحبوب المهدئة، فلتكن عشراً بدل الأربع، ولكنه يتردد ثم يُحجم. فهو يريد أن يكون مع آسية في الجنة، والمنتحرون مصيرهم النار. يتوقع عمر أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي يمنعه من الانتحار، وأن خوف الموت هو السبب الحقيقي، وإن تَذَرَّعَ بقول الرسول صلى الله عليه وسلَّم: « من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم» الحديث الذي احتج به سعيد في حوار دار بينهما عن الانتحار، فرد عمر : يا أخي أليست حياتي وأنا حُرّ فيها؟!

– طبعاً حياتك؛ ولكنك لستَ حُراً فيها، فالله هو الذي منحك هذه الحياة، وهو الذي يملك أن ينهيها، عندما يشاء سبحانه وتعالى.

– وعندما أنهيها أنا، أليس الله هو الذي كتب أن يكون أجلي في هذا الوقت بالتحديد؟

– من دون شك، ولكن عليك أن تحافظ على حياتك، حتى يأتي

الأجل دون استعجاله، فراراً من أقدار الله. فالمنتحر ليست جريمته فقط أنه أزهقَ نفسه، ولكن هناك جريمة أخطر، وهي أنه تدخل في أمرٍ لا يملكه، وفرَّط في حفظ الأمانة التي استأمنه الله عليها.

– يا أخي ليس هناك ما يساعد على مواجهة الموت بلا خوف إلا القرف من الحياة.

– الحياة مرحلة اختبار، فإذا اجتاز الإنسانُ الامتحان بطاعة الله حتى النهاية، يكون قد استحقَّ المكافأة، أما إذا هرب من الحياة فإنه كمن هرب من الامتحان، فهو لم يجتز الامتحان ولا يستحق الجائزة، مهما كانت الظروف المحيطة به قاسية.

منحه سعيد بهذه الحجج فرصةً ليداري تردده وخوفه من الموت، وعجزه عن اللحاق بحبيبته آسية. يشعر بذلك، ويسخر من نفسه، وهو يتحدَّث عن (جاك أشورت) الذي انتحر احتجاجاً على موت كلبه: هذا الوفاء وإلا فلا، أما أن تدعي الحُبَّ ولا تحرك لموت الحبيبةِ ساكناً فهذا الخَوَر والعجز، وإن تدثَّر برداء الصبر والاحتساب.

يؤرقُه عجزه عن اتخاذ القرار، مع أنه لا يرى الانتحار عاراً، فقد انتحر (همنجواي) الذي صوَّب البندقية ذات الماسورة المزدوجة نحو جبهته، وضغط الزناد بآخر قوة كان يمتلكها. وخليل حاوي الذي أطلق الرصاص على نفسه ليضع حداً لمأساته الشخصية المؤسسة على مأساة شعبه ووطنه. و(هنري دي مونترلان) الذي أنهى حياته بطلقة من مسدسه. ولم يلحق أيّاً منهم العار بسبب انتحاره. بل إن واحداً في المئة من بين

الوفيات تكون نهايته بالانتحار، فلِمَ لا يكون الواحد من بين مئة من أبناء السورجة؟ الانتحار ظاهرة رفض للحياة، بصيغتها غير المرضية، وعمر يرفض صيغة الحياة التي يعيشها، ولكنه لا يجرؤ على الانتحار، بحجج دينية أحياناً، وبحجة أنه سيموت تلقائياً في الثلاثينيات من عمره. يُكْبِر مئات الجنود اليابانيين الذين انتحروا رفضاً للهزيمة التي لحقت بهم في الحرب العالمية الثانية، يُكْبِرُ فيهم أنَفَتَهم. والهنود الحمر الذين انتحروا رفضاً لانتهاك كرامتهم القومية. وبالقدر نفسه يسخر من أتباع القسيس (جيم جونز) التسعمئة الذين انتحروا جماعياً بسم السيانيد في (معبد الناس) بأمريكا الجنوبية، فقط لأن زعيمهم يريد ذلك.

وها هو الموت يأتي، والآن لا يعرف عمر في أي بقعةٍ من الأرض واروه، يرجو أن يكون في جبل حالية بجوار آسية، ولكنه لا يستطيع لقاء آسية، ولا معرفة الوقت! ولا يستطيع حتى الاستلقاء على ظهره. حتى وسادته الرمادية لم يعد يحلم بأن تكون معه في هذا المكان الرهيب. الذي كان في طفولته يخصصه للذين لا يحبهم من أهل السورجة؛ فيصنع كومات من التراب، صغيرة، ويضع على طرفي كلِّ كومةٍ شاهدين، يجعلها متجاورة، متتالية كالقبور التي يراها في سفح جبل حالية، يوزع عليها الذين يتمنى لهم الموت. ويقول لنافع وآسية: هذا قبر غرامه الخلف الذي يشتمني كلما تسلل غنمنا إلى مزرعته. وهذا قبر مشعان الساحر، وهذا قبر سالم المهدي. وهذا قبر مهرة التي ترصد حركاتنا وتشي بنا لآبائنا.

(23)

عندما عاد نافع إلى السورجة نهاية العام، وجد والده لايزال مسكوناً بنفسٍ القدر من الحزن الذي رآه يوم عزاء آسية. لم يتوقَّع أن يحطِّمه موت آسية إلى هذا الحدِّ. اسودَّت الحياة في عينيه، وصار يتحدَّث بلسان اليائس من كُلِّ شيء. قالت زوجته لنافع: من أيام العزاء وهو على ما ترى. حتى أبو عمر تردد إليه وكلمه، ولكن من دون فائدة، لم يعد يخرج من البيت إلا للصلاة.

– أنت الذي علمتنا الصبر، فكيف تعجز عن الصبر على قضاء الله وقدره؟!

– إنا لله وإنا إليه راجعون، أنا صابر ومحتسب يا ولدي.

– الاحتساب أن ترضى بقضاء الله.

– اللهم لا اعتراض على قضائك، يا أعدلَ الحاكمين.

– ينبغي أن تعود إلى حياتك الطبيعية، كل أهل السورجة حرثوا مزارعهم إلا نحن، آسية لن تعود، مهما تَملَّكنا الحزن.

– آسية. آه يا آسية. لاتزال تعاودني في أحلامي، وكأنها تعاتبني على عجزي عن حمايتها.

– حمايتها من ماذا؟!

تدخلت زوجة المطوع: يقصد حمايتها من السقوط.

– انتبه يا أبي، إنه الشيطان يريد أن يوقعك في شَرَكِ الاعتراض على قضاءِ الله تعالى.

– هذه عقوبة من الله لأني لم أتوكل عليه حقَّ التوكل، وخفتُ المخلوق الذي لا يملك ضراً ولا نفعاً.

– عقوبة ماذا يا أبي، وأي مخلوق؟!

– يا ولدي ما نزلتْ عقوبةٌ إلا بذنب، ولا رُفعت إلا بتوبة، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما تعلم ولا أعلم.

قطع حديثَهما صوتُ أعيرةٍ نارية متصلة، خرج نافع وأبوه وزوجته، يرقبون مصدر الصوت، وإطلاق النار لايزال متصلاً. جاء الصوت من جهة بيت غرامة الخلف. أسرع إليه نافع، ولحق به المطوِّع على مهل، ليجد أكثر أهل القرية قد اجتمعوا في ساحة منزل غرامة الخلف، وهو يرحب بهم، ويجلسهم على مفارش قد أعدها لهم. يتساءلون عن سرِّ إطلاق ابنه خلف للنار بهذا الشكل، دون مناسبة، فهو متزوج منذ عام فقط، ولم يُسْمَع أنه ينتظر مولوداً، فما مناسبة هذا الابتهاج؟!

لما نفدتْ الذخيرة، وهدأ المكان، وأنصتَ المجتمعون، أشار غرامة الخلف إلى ابنه خلف أن يخبر الناس بمناسبة هذا الابتهاج، فكانت مفاجأةً للجميع، أن يقول خلف: إنه دخل بزوجته ذلك الصباح؛ بعد عامٍ من زواجهما. حيث كان عاجزاً عن معاشرتها برغم ما يظهر للناس من الرضا والسعادة التي تغمر بيتهما، وإن استبطأت النساءُ حملها. كانت زوجة خلف مضربَ المثل في أصالتها، ومحلَّ إكبار أهل السورجة جميعاً. اعترضت على إذاعة ما حدث للناس:

– سترنا الله وأنت تفضحنا يا خلف.

– هذه رغبة أبي، إكراماً لصبرك.

– ولِمَ تخبره؟

– لأفتخر بك أمامه.

لم يَطُل اجتماع الناس عند غرامة الخلف، فقد جاءهم خبر موت مشعان الذي انزلق في بئر السورجة؛ وجده الرعيان عندما أوردوا أغنامهم ظهراً. ربط الناس بين انفلات خلف من قيد العجز، وموت مشعان. برغم هيبة الموت، يعتقد أهل السورجة أنها ستكون من دونه أفضل. لم يكن سالم المهدي يوافقهم الشعور فقد كان حزنه عليه كحزنه على تركية الأهدل، وآسية بنت المطوع.

(24)

أسِفَ عمر لفرح أهل السورجة بموت مشعان، بينما كانوا يتودَّدون إليه، في حياته، ويجاملونه؟! الموت ليس عقوبة. إن الإنسان لا يُفترض به أن يتمنى الموت للآخرين. إنها درجة من القسوة لا يتصورها عمر، برغم عبث الطفولة الذي يدفعه إلى تخيل الناس الذين آذوه في قبورهم؛ أما بعد ذلك فإنه لا يتصور نفسه متمنياً الموت للآخرين. فما كان عمر ليسامح نفسه لو تمنى الموت لأحد مهما بلغت درجة أذاه.

تُرى هل مشعان بهذا القدر من السوء الذي تصوره أهل السورجة؟! أم أنهم يتوهمون لديه قدرات لا يملكها؟ لم يكن عمر يراه إلا مشعوذاً خبيثاً. ولكنه لا يستطيع أن ينكر أنه على قدر من الذكاء، يعتني بهندامه، ويبدو رجلاً جليلاً يذكر الله كثيراً؛ ومع ذلك فهم يرونه منافقاً، ويعرفون الدور الذي يلعبه في إيذاء الناس والوشاية بينهم. له مع كل واحدٍ منهم قصةٌ آذاه فيها؛ أو حرَّضَ عليه جيرانه، أو طلب منه مالاً مقابل مساعدته على رفع الأذى عنه، أو إيقاع الأذى بالآخرين. عرفوه أيضاً بالسحر

والشعوذة، وضحايا أعماله في السورجة كثير، كان حسن الذيب واحداً منهم، وتركية الأهدل، وخلف بن غرامة، وزوجته. الذي لا يعرفه سوى المطوع وزوجته أن هناك ضحيةً أخرى له، هي آسية التي قتلها خوفها من مشعان؛ خافت أن يُلحق عمر بحسن الذيب، فاختارت المصير ذاته لنفسها. مع أن المطوع لم يكن يعرف الدوافع الحقيقية وراء انتحار آسية، إلا أنه يعتقد أن رفضها لسالم المهدي، وخوفها من إصراره عليها دفعاها لذلك. يؤنبُ نفسه لأن خوفه على آسية من مشعان هو ما جعله يعرض عليها الزواج بسالم المهدي، وإلا لكان رفضَ طلبَه، دون أن يعرض الأمر عليها، بل ما كان سالم المهدي ليجرؤ على خطبة آسية وتهديده لولا اعتماده على مشعان. كان حزنه عظيماً، لأن آسية أنهتْ حياتها بطريقة يرفضها الدين، وهو الرجل التقي الذي يعرف عقوبة الانتحار. لم ينفك يدعو لها أن يغفر الله لها ضعفها، فهي طفلة لا تعرف فداحة ما أقدمت عليه، في كلِّ مرة يختم دعاءه لآسية بقوله: حسبنا الله على من آذانا، اللهم انتقم منه، اللهم إنا ندرأ بك في نحره ونعوذ بك من شره، اللهم انصرنا عليه.

يعتقد عمر أن السابقين إلى جبل حالية يستقبلون القادمين الجدد. لم يكن يعرف طبيعة الاستقبال على وجه التحديد، إلا أنهم يأنسون بالقادم من السورجة، بطريقة ما. يحدثهم حديث منازلها، وإن لم يكن أحلى الحديث! لا بُدَّ أنَّهم يتطلعون إلى معرفة ما حدث بعدهم في السورجة، وما ترتَّب على رحيلهم من أحداث صغيرة أو كبيرة لا فرق؛ فلديهم الوقت لسماع كلِّ

التفاصيل. يعتقد أن السابقين إلى جبل حالية، لن يبتهجوا كثيراً بمقدم مشعان، فأكثرهم من ضحاياه، أو ممن أخذ منه مالاً قليلاً أو كثيراً، لدفع ضرٍ عنه، أو ليسلم أذاه، أو ليؤذي خصومه. يعتقد عمر أن حسن الذيب وتركية الأهدل سيكونان أكثر الناس بغضاً لمشعان، وربما لو أُتيح لهما الانتقام منه لفعلا. ولكن كيف ينتقمان منه وهو ميت؟! لم يكن عمر يملك إجابة، ولكن لا بُدَّ أن لدى الأموات فرصة للانتصاف ممن سبق أن ظلمهم أو أساء لهم، هذا ما تقتضيه العدالة الإلهية التي لا شك فيها.

يمضي الوقتُ دون أن يستطيع عمر السورجي تحديده، دون أن يستقبله أحدٌ من سابقيه إلى جبل حالية. يتوقّع أن ذلك يرجع إلى أنه ربما دُفن في فلاة ليس فيها أمواتٌ غيره، أو أنه بجوار أناسٍ لا يعرفهم ولا يعرفونه فلا مبرر أن يستقبلوه. لو كان في جبل حالية، لكانت آسية في استقباله، ولكنه عاجز عن الحركة، وعاجز عن مجرد الاستلقاء على ظهره، وعاجز عن معرفة الزمن، أو المحيط الذي يقع فيه. لا بُدَّ أنهم يمرون بظروفٍ مشابهة، فلا لوم عليهم حين لا يستقبلونه.

(25)

شعر أبو عمر بالغبن فولده ليس كنافع الذي أصبح يقوم بأداء دور والده في إمامة المصلين، وخطبة الجمعة، ويقرأ لهم في كتاب بعد صلاة العصر كلَّ يوم. بينما عمر في المدينة، لا يأتي حتى في الإجازة ليكون بجوار أسرته، فقد مضى شهرٌ من إجازة نهاية العام الدراسي، دون أن يعود عمر إلى السورجة، بينما رجع نافع في أول أيام الإجازة.

ألحَّتْ فضَّة على (أبوعمر) أن يسافر للمدينة، لمعرفة سبب تأخر عمر، فنافع يقول: إنه وعده أن يلحق به بعد أيام. لم يكن أبو عمر ليوافق على السفر إلى المدينة، فليس هناك ما يجنيه من عودة عمر إلى السورجة؛ ولايزال عاتباً عليه، ويشعر بأنه تغيَّر منذ ترك السورجة، في عزاء آسية، دون أن يقيم أيام العزاء الثلاثة كعادة الناس في السورجة، ودون أن يودِّعَه، أو يسلم على جدته فضَّة، ولا عمته وإخوته. اضطر إلى الموافقة لإلحاح فضّة؛ فهي تعتبره ولدها الوحيد، رعته في طفولته وصباه، ولما قالت: أتمنى أن أرى عمر قبل أن أموت، فأنا أشعر بأن الأجل

يهتف لي. رقَّ لها أبو عمر، ووعدها بأن يذهب من الغد إلى المدينة، ولن يعود إلا بعمر، ولكِ العمر الطويل يا خالة، قالها ضاحكاً بأسى وهو يمسح دمعةً انسربتْ بين تجاعيد خدها.

طلب أبو عمر من نافع مرافقته إلى المدينة، فهو لا يعرف شيئاً هناك. قال أبو نافع: بل يذهب نافع يأتي بعمر، ولا داعي لسفرك. أعجبه هذا العرض الكريم من المطوِّع، ولكنَّه وعدَ خالته فضَّة أن يذهب بنفسه، ولا بُدَّ أن يفي بوعده.

عندما رجع عمر من الجامعة تفاجأ بوالده ونافع في الشقة. هدأ غضب (أبو عمر) عندما دخل عمر يحمل كتباً ومذكرات. رحَّبَ بهما، وفي لغةٍ لا تخلو من العتب، تساءل أبوه عن سبب قضائه الإجازة في المدينة؛ رضي لما علم أن عمر سجل فصلاً صيفياً، ليختصر مدة الدراسة في الجامعة. والحقيقة أن البحثَ عن مبررٍ للبقاء في المدينة، هو السبب الحقيقي لتسجيله فصلاً صيفياً، إذ لم يعُدْ يطيق السورجة التي سلَّمتْ آسية للموت. لما ذكر له أبوه مرض جدته فضّةَ، طلب من أبيه أن يحضرها للمدينة للعلاج، وألا يكرر ما حدث لجدته حالية؛ ألحَّ عليه أن يعود معهما للسورجة ليأخذها فتقيم عند أبو جمال وتراجع المستشفى. لم يجد عمر بُداً من الموافقة. عند الغروب كان الثلاثة يمرون بجبل حالية، حيث شخصتْ عينا عمر الدامعتان جهة المكان الذي يحتوي جسد الحبيبة.

يرى كلَّ المواضع التي تذكره آسية، والطفولةَ والحبّ، مكانَ لقائهما الأول بعد عودته من المدينة، وصحناً يحتوي الشاي

والخبز، وعينين مكحلتين، ويدين مخضبتين، ومسارقة النظرات. المكان الذي كتب لها اسمها فيه. المكان الذي قبلها فيه القبلة الأولى، الزهرة الأولى في شجرة حياته. وقف بهم السائق أمام بيت المطوع لينزل نافع هناك. يلف عمر الوجوم وهو يرى الجدار الذي كان يلتقيها بجواره، فيجلسان يتكلمان حتى الفجر. يتذكّر تفاصيل اللقاء الأخير، وطعم دموعها المالحة، فتترقرق دموعه، وهو يداري عينيه عن نظر نافع وأبيه. استقبلهم المطوع مرحباً، نزلوا للسلام عليه، فأصرَّ أن يتعشوا عنده، فلم يجدوا متخلَّصاً برغم استعجال أبو عمر، فهو غائب عن بيته منذ الصباح وذلك ما لم يتعوده أبداً.

الحزن يحيطُ بكلِّ شيء في بيت المطوع، حتى النوافذ والجدران. كُلُّ شيء يقول إن الموتَ مرَّ من هنا بقسوته وبشاعته، ليس موت العجائز، ولا موت المرضى، ولا موت اليائسين، وإنما موت الحياة نفسها، موت آسية. لم يكن عمر في حاجة إلى ما يُذكِّره بآسية، فهي تملأ ذاكرته، رآها في كل الزوايا، حاصرته الذكريات من كلِّ الجهات، ينظر إلى الأبواب توشك أن تُطِلَّ عليه من أحدها، أن تحضر الشاي، أن تقدِّم الماء. في هذه الصالة كان يذاكر مع نافع وهي تنظر إليهما، تمنعها عمتها من الاقتراب منهما حتى لا تزعجهما. هذا باب غرفتها، مستودعِ أفراحها وأحزانها وآلامها، تُرى ألا تزال ثيابها معلقةً على المشاجب؟ لاحظ عمر أنَّ المطوع فَقَدَ كثيراً من حيويته ونشاطه، يسرع إليه الهرم، ويتملكه الوجوم، برغم محاولته ملاطفتهم. لم يكن عمر معهم، كان شارداً، ومضى الوقت، فرغوا

من العشاء، وشربوا الشاي. يحين وقتُ الانصراف لصلاة العشاء ومن ثمَّ إلى بيتهم، دون أن ترحِّب بهم زوجة المطوِّع! لا بُدَّ أنها مريضة، سأل عنها عمر، فطمأنه المطوع أنها بخير، وأنها هي التي أعدَّتْ العشاء.

– فلم لم ترحب بنا، لا تكون زعلانة مني؟! قالها عمر مداعباً.

– بادره نافع: لستَ محرماً لها لتكشف عليك يا عمر.

– هي أمي، رعتني كما رعتك.

– الحق ما يزعِّل يا عمر.

– بأي حق، تغيرون فطرية الناس، وتقطعون أواصرهم باسم الدين، دون اعتبار لمقاصد الشرع؟!.

قاطعهما أبو عمر: مستأذناً، وتبعه أبو نافع مودِّعاً.

بعد صلاة العشاء كانت جدته فضَّة في استقباله، يحفها إخوته الصغار، استقبلته بالدموع، فقد صارت وسيلتها للتعبير عن فرحها وحزنها وغضبها، وهو يقبل رأسها وخدها ويديها. لم تكن عمة عمر هناك، التفت عمر إلى أبيه: أين عمتي؟ أم أنني لستُ محرماً لها أيضاً؟! ضحك أبوه، قالت أخته: أمي أوصلت عشاءً لزوجة غرامة الخلف فهي مريضة. سألتْ فضة عمر معاتبةً عن سببِ تأخره، وعن صحته، وعن زوجة (أبوجمال) وولديه، وعمر يقلِّب كفها بين يديه، ويقبلها مع كُلِّ سؤال، بينما يبدو عليها الإعياء، والوهن، فلم تعد فضَّة التي عهدها منذ

شهور، تدير كُلً من حولها بحزم.

جاءت زوجة (أبو عمر)، تحمل أطباقاً فارغة، وهي ترتدي عباءة سوداء، وشالاً أسود رفعته عن وجهها عند دخولها، رحبت بعمر. عجب عمر للباسها فلم يعهد العباءة السوداء، وغطاء الوجه إلا في المدينة، فكيف وصلتْ إلى السورجة؟! قالت: نافع (جزاه الله خير)، أحضر لجميع نساء السورجة عباءات وأغطية لوجوههن على نفقة أحد المحسنين، لأنه حرام علينا الخروج من بيوتنا إلا بهذا اللباس الإسلامي.

(26)

يعتقد عمر أنَّ آسية قد مَرَّتْ بالتجربة التي يمرُّ بها الآن، لا بُدَّ أنها أفاقت، وتذكَّرتْ عمر وفكَّرتْ فيه كثيراً، يرجو أن نهايته كانت في السورجة، وأن يكونَ مستقره في جبل حالية، ليكون قريباً من الذين عرفهم وسبقوه إليه. لا يعلم الآن أين انتهى به العمر، آخر ما يتذكَّرُه أنه كان جالساً مع زوجته وأطفاله، في السورجة، يشاهدون تقريراً عن جنازتي نجيب محفوظ، الرسمية والشعبية. ها هو على جنبه الأيمن، وقد باشروا بخدِّه التراب. يشعر ببرودة التراب في خده، فهل فعلوا بآسية كذلك؟ إن خدها الناعم ليس كخدِّه الذي تملؤه البثور، يصبح خدُّه كورقة برشوم كلما غفل عن حلاقته يومين أو ثلاثة، لن يحتمل خدُّها خشونَةَ التراب.

أهذا الموتُ الذي ظلَّ عمر يخشاه منذ رأى حسن الذيب مُسجىً في غرفته الحزينة؟! حتى أفسد التفكير في الموت حياته؛ لم يستطع الانفكاك عن فكرة الموت، فهي تلحُّ عليه باستمرار. كلما أوشك أن يُفلتَ من أسرها، أعاده الموت إليها، في كل مرة يزور الموت السورجة؛ حيثُ يبدو أنه يقيم قريباً منها، يستعيد عمر سلسلة موتى السورجة التي سرد حلقاتها الموتُ بقسوة فائقة،

وقدرة على تخير أفراد تلك السلسلة. افتتح الموت حياة عمر بموت أُمه التي لم يرها، ولكنه يعتبر الجناية بينه وبينها جنايةً متبادلة، جَنَتْ عليه حين أقحمته في لجج الحياة، وجنى عليها بأن أخرجها إلى عتمة الموت.

يحاول عمر أن يلغي فكرة الموت من حياته، فكَّر أن يعشقَ الموت؛ عندما أحبَّ آسية رحلتْ إلى غير رجعة، فلمَ لا يراوغ الموت ويحبه، لعله يرحل كما رحلت آسية، أطال التفكير في هذه الفكرة، فإذا هو يفكر في الموت نفسه، وإن بشكل مختلف قليلاً. لم يعد يجلس مع الذين يُذكِّرونَه بالموت، كثيراً ما يحاصره خطيب الجمعة، حين يشرع في الحديث عن الموت. عندما يحدث ذلك لعمر في المدينة فإنه يخرج من المسجد إلى مسجد آخر، برغم أن سعيد قد نبهه إلى كراهة الخروج من المسجد والإمام يخطب؛ ولكنه يعتبر الفرار من حديث الموت ضرورة تبيحُ خروجه. في السورجة ليس خروجه ممكناً، لأنه لن يكون محظوراً دينياً فقط، بل يتجاوز ذلك إلى اتهامه بالاستهانة بالصلاة، والخطبة، وربما يُفسَّر ذلك بأنه موقف عدواني تجاه نافع الذي يخطب نيابةً عن أبيه، كلُّ ذلك اضطره إلى أن يواصل الاستماع لخطبة نافع التي خصصها للحديث عن الموت، مبتدئاً بوصف حشرجة الموت، ومشاعر الحسرة والأسى التي تنتاب الإنسان في حال إدباره عن الدنيا وإقباله على الآخرة. راودته فكرة الخروج من المسجد عن نفسه مراراً، ثم يردُّه خوفه من نظرات الناس، بل قد يتهور نافع ويوجه له الخطاب مباشرةً، منبهاً إلى خروجه من المسجد، احتمل الاستماع ونافع يبالغ في

وصف حالة المحتضر، كانت آسية ماثلةً أمامه؛ يجاذبها الموتُ روحَها الرقيقة الشفافة، أيُّ قلبٍ للموت الذي لا يرحم آسية؟!

دخل نافع بالمصلين القبور، وبدأ يحدثهم عن ظلمة القبر، وضَمَّتِه التي تتخالف من جرائها أضلاع الميت، وعن بطنه الذي ينفجر بعد أن يمضي عليه أربعون يوماً في القبر. ثم حدَّثهم عن الدود الذي يخرج من عيني الميت، وأنفه، وفمه، ثم ينتشر في سائر جسده؛ ينهش أجساد الموتى بلا رحمةٍ ويتكاثر بأعدادٍ لا تُحصى، ثم يتحول الدود والجسد إلى تراب. استطاع عمر أن يتفهَّم كلام نافع عن عقوبة العاصين، وثواب الطائعين، ولكنه لم يستطع أن يفهم الحكمة من كلامه عن الدود واللحود، وانفجار بطن الميت، فهذه أعراض طبيعية ومصيرية، لا علاقة لها بما قدَّم الإنسان في حياته من عمل، يستوي في ذلك المؤمن والكافر، والحيوان في الفلاة. سأل نافع بعد الصلاة، ما الطائل وراء إرعاب المصلين، بما لا يملكون له رداً؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن اللحود والدود وظلمة القبر، مثل الموت، ليست عقوبةً، بل هي شيءٌ حتمي، يستوي فيه المذنب والمطيع، فلماذا تجلد الناس بهذه السياط؟ وتؤذي مشاعرهم بهذه الصور من على منبر الجمعة؟

– الذكرى تنفع المؤمنين يا عمر، وأرجو أن تكون منهم.

خشي عمر أنه إذا استمر في حواره هذا؛ سيصدر حكم نافع بأنه ليس من المؤمنين، فاكتفى بما سمع.

(27)

تتوسل فضَّة إلى (أبوجمال) ألا يتركها في المستشفى، وأن يعيدها إلى السورجة، فهي لا ترغب الموت بعيداً عن حالية، وأبويها. ترجوه أن يسابق بها الموت إلى السورجة، فأمانيها لا تتجاوز الانتقال إلى جبل حالية، بجوار أحبابها، وجد عمر رائحة الموت التي استنشقها في لقائه الأخير بجدته حالية؛ الرائحة التي استنشقها عندما أَطَلَّ في طفولته على حسن الذيب المسجَّى في غرفته الكئيبة. الرائحة ذاتها التي جَلَّلَتْ المكان عندما كان الناس يحملون تركية الأهدل على رقابهم، وبقعة الدم على كفنها الأبيض. تقول لهم وهم يغادرون غرفتها: أوصيكم أن تعيدوني حيةً أو ميتة إلى السورجة، فأنتم الذين أخرجتموني من هناك. ولم تنفك تُكَرِّر وصيتها تلك لأم جمال التي ترافقها في المستشفى.

ليس نقلها إلى السورجة أمراً يسيراً، ولكن وصيتها لا بُدَّ أن تُنفَّذ، ليجد عمر نفسه في جبل حالية مرةً أخرى، وبجوار قبر آسية؛ يكاد يحسدُ جدته فضَّة على جوار آسية، يوشك أن يقول:

اتركوا هذه الحفرة، واحفروا لجدتي أخرى بجوارها. لم يكن موت جدته فضَّة كارثياً، فقد كانت كسفينة تحط في مرساة، لتستريح من الأمواج، بعكس آسية التي لم يستطع عمر استيعاب موتها، فقد كان أشبه بعاصفة حطَّمت سفينته في عرض البحر، وبقي معلقاً، لا هو غرق واستراح، ولا أمل له في وصول الشاطئ.

لن يطيق عمر البقاء في السورجة، برغم أنه قد تزوَّد بالحبوب المهدئة التي يستعين بها على الخوف الذي ينتابه كلما فكَّر في مستقبله بلا آسية، أو فكَّر في أيامه التي مضت؛ أيام كان يرى آسية ويَعِدُ بها نفسه، ويعيش على أمل أن تظللهم شجرة وارفة. وبماذا يعتذر لوالده، ولِعَمِّه (أبوجمال)؟ فلو جاز للآخرين الغياب لما جاز له، فهو في عيون الناس ابن فضَّة، وتراه الشيء الوحيد الذي خرجتْ به من هذه الحياة..

لم تفلح الحبة التي ابتلعها في جلب الهدوء والنوم إليه، ولم يشأ أن يتبعها بثانية، خوفاً ألا يستيقظ، ويكون مثاراً لحديث أهل السورجة، ربما يتهمونه بتعاطي المخدرات التي شاعَ تورُّط الشباب في تعاطيها، حتى عمر أوشك أن يجربها حين اقترح عليه ذلك زميله في الكلية، ليخرجه من حزنه وكآبته الدائمة، ولكن عمر لم يتناولها متذرعاً بأنه لا يرغب أن يلوِّث حزنه على آسية بالمخدرات. من ذلك اليوم اعتزل زميله ذاك، ولم يدم طويلاً حيثُ انقطع عن الدراسة، ثم طوي قيده من الجامعة. لا يعرف عمر السبب على وجه اليقين، ولكنه يتوقع أنه قد قبض عليه، فقد حدث ذلك لكثيرٍ ممن عرفهم عمر، حيثُ أخذتهم المخدرات في طريقها إلى السجن، أو الموت أو الجنون. لعل من الأسباب

التي جعلت عمر ينجو من الانحدار في هذا الطريق علاقاته المحدودة، ورفضه التدخين برغم عروض زملائه المدخنين، فالتدخين في رأيه بابٌ يفضي إلى ما بعده من المسكرات والمخدرات. في السورجة يوصمُ المدخِّن بالعار الذي يجعله يشعر بأنه قد خسر كلَّ شيء، فلا يتورَّع عن شيءٍ بعد ذلك. لم يشعر عمر بميلٍ للتدخين، فرئتاه لا تحتملانه، ثم هو عاجزٌ عن تحمُّل نظرات الازدراء التي سيحاصره بها السورجيون وهو يحمل السيجارة بين أصبعيه وينفث دخانها أمام الناس. إنَّه ليس كجمال الذي لا يهتم لأحد، ويشعل سيجارته بحضرة أيِّ سورجي. يحسد جمال على شجاعته، ولا مبالاته، ثم يعود فيعتزُّ بصموده أمام شهوة التدخين، فهو يعرف نفسه جيداً؛ إنه كإحدى الصخور الثابتة في رأس جبل حالية، منذ آلاف السنين، ولكنها لو تزعزعت من موضعها، فلن تستقر إلا في قعر الوادي السحيق الذي تطلُّ عليه السورجة. هكذا يعتقد أنَّه لو وقع في شرك التدخين، لتبعته كلُّ المكيفات الأخرى، ولانتهى به الأمر إلى زبونٍ دائمٍ للمروجين يستجديهم ما يُبقي على مزاجه، ولأمسى عابراً للأرصفة يذرعها جيئةً وذهاباً بلا اتجاهٍ ولا هدف، ثم ينتهي به الأمر أن تُلتقط في يومٍ ما جثّته من إحدى الحدائق العامة، أو الغرف المغلقة.

لقد صدمه كثيرٌ من زُملائه في المعهد وفي الجامعة الذين كانوا محلَّ ثقته، ثم اكتشف أنهم غارقون في مستنقع التعاطي الآسن. وبعد توالي الصدمات، أصبح أكثر حذراً، فلم يعد يندفع في بناء العلاقات مع الآخرين، إلا بعد زمنٍ طويل، حتى صارت

له سمة، لا يألف ولا يؤلف بسرعة، فقد سمع قصصاً كثيرةً لأصدقاء، ذهبوا ضحايا صداقات مشبوهة، لا ذنب لهم فيها.

قرَّر عمر أن يقضي أيام العزاء الثلاثة في السورجة مهما كلَّفه ذلك، يحرم نفسه الراحة في النهار، وينهمك في القراءة ليلاً، متجاهلاً موعد النوم حتى يجد النوم يتسلل إلى أجفانه، فيتصنَّع مقاومته، ولا يلبث أن يغرق في نومٍ عميق، تنتابه أحلامُ الطفولة، ولكنه لا يفيق إلا عند الصباح، فتغمره السعادة لمرور ليلة كان يتوقَّع ألا تمر بسلام.

(28)

يتساءل عمر الآن عن موت جدته فضَّة، هل كان سهلاً ولذيذاً؟ أم أنه كان قاسياً كقسوته على آسية؟ هل هي حقاً كسفينة حَطَّتْ في مرساها؟ أكان دواءً لشيخوختها؟ وهي التي كانت تشكو عبء الشيخوخة وتدعو الله أن يُعَجِّل انتقالها إلى جبل حالية، قريباً من أبويها، وأختها حالية، أم أن الشيخوخةَ لا تعود عبئاً حينما يدنو الموت؟.

هل كانت تتمنى لو أمكن تأجيل الموت قليلاً؟ لقد كان موتها بالنسبة إلى عمر أمراً طبيعياً، ليس كموت آسية القاسي الذي يبدو عقاباً موجهاً له تحديداً، في حين يعتبره المطوِّع عقوبةً من الله له، لخوفه من مشعان وسالم المهدي، وعدم مواجهتهما بالتوكل على الله. يغدو الموت أشدَّ قسوةً وبشاعةً عندما يكون ضحاياه مَنْ نُحب، ونرى قسوته بقدر حبنا، واحتياجنا إلى ضحاياه. أما بالنسبة إلى الذين يتجرعونه فإنه كالبحر لا يغير لونه ولا طعمه أبداً، يستوي البحر الأبيض، والبحر الأسود، والبحر الأحمر، كلها زرقاء مالحة، وكذا الموت، بمرارته،

وقسوته، وبشاعته. هل حقاً أن الموت ليس له وجود في حياتنا طالما كنَّا أحياء، إذ مجرَّد ما يوجد فإننا لن نكونَ أحياء؟ يبدو ذلك غير مقنعٍ لعمر، فالموتُ الذي يخشاه وقع وعاشه في أبشع صوره وهو يختطف حبيبته آسية. تأكد له أنه ليس من السهل التحديق في الموت، فهو يرى الموت وهو يحلُّ بالآخرين، ولكنَّ الذينَ ماتوا ليس منهم من يستطيع أن يخبرنا عن تجربته مع الموت. تتضخَّم كارثية الموت عندما لا يرتبط بِعُمْرٍ معين، أو بمؤشرات محدَّدة، فما أكثر الذين ماتوا فجأة قبل الأوان، وكأن الإنسانَ يصبحُ مُسناً ومرشَّحا للموت منذ لحظة ميلاده.

حاول عمر تناسي الموت وقد نجح إلى حدٍّ ما، ولكن الموت يأتي فيعيده إلى حلبة الصراع من جديد. هكذا أصبح عمر مقتنعاً بأن من يتناسى الموت فإنما يتناسى الحياة والموت معاً، فالحياة منذ بدايتها إنما هي شروعٌ في الموت. من الناس من تَستغرق وفاته دقائق بعد الولادة، ومنهم من تستغرق ساعات، أو أياماً أو أسابيع أو شهوراً، أو سنوات، قليلة أو كثيرة، ولكنها مجرد خطوات تدريجية تبلغ الذروة بفيضان الروح. لا أحد يدري هل يقبل الميتون العودة إلى السورجة لو كان ذلك ممكناً؟ يتمنى عمر لو كان بوسعه أن يطرق باب قبر جدته فضَّة، ليسألها هل ترغب العودة إلى السورجة؟ أم أن أمانيها قد تحققت بعودتها من مستشفى المدينة إلى جبل حالية؟ هل ستقبل إعادة التجربة ثانيةً، بعد أن تخفَّفت من متاعبها، وأسقامها وأحزانها؟ بعد تفكير عمر الطويل في موت جدته فضَّة، شعر بأنه يقترب من الاقتناع بضرورة الموت، فلو لم يوجد الموت

الطبيعي لوجب أن يوجد نظام لموتٍ صناعي، فكثرة البشر عبر الأجيال، وتزاحمهم على موارد الأرض المحدودة تتطلب نهاية طبيعية، ولن يجد الناس هذه النهاية إلا في ديمقراطية الموت القاسية، ولكن ذلك ليس مبرراً كافياً لموت آسية.

يشعر عمر بأن نظام الموت هذا يشمل الحيوانات بشكل مختلف، فكثيرٌ منها يموت بيد الإنسان، ولكن موت الحيوانات خاصةً البرية والمتوحِّشة منها يتم بشكل فردي ومعاناةٍ خاصة جداً، إذ تنزوي عن الأنظار، وتدخل في أعماق المغارات، أو أقصى ما يمكنها من ابتعاد عن أنظار قريناتها. يسأل عمر كبار السورجة، وهم الذين يعيشون منذ عقود على حواف الغابات المليئة بالحيوانات البرية، هل رأى أحدٌ منهم حيواناً برياً يحتضر؟ فيتنبهون إلى هذه الظاهرة بعد أن يعجزوا عن تذكُّر حالةٍ واحدة، حتى كلاب الحراسة، والقطط الأليفة، تغيب عنهم ثم يجدونها بعد حين، وقد اتخذت مكاناً قصياً لتمارس فردانية الموت بعيدةً عن الأنظار.

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي عرف بالتجربة أنه سيموت، ومع أن الموت موتنا نحن فإننا لا نفكر فيه إلا بوصفه موت الآخرين، وكلما تخيلناه تدافعت صوره في مخيلتنا بوصفنا متفرجين، نقف على شفير القبر، نودِّع الميت الذي يكون أيَّ شخصٍ آخر غيرنا، أما إذا كان عزيزاً فإننا نشعر كما لو أن الآمال التي تجيش بها صدورنا، والكبرياء التي تملؤنا، والسعادة التي تغمرنا، كلها قد دُفنتْ في القبر مع أحبابنا.

(29)

ليلة بهيجة، تَسَلَّمَ خلالها الخريجون وثائق تخرجهم، أبو جمال يشعر بزهوٍ واضح، وهو يرى جمال يتسلَّم وثيقة تخرجه من مدير الجامعة. التُقِطت الصور الجماعية للخريجين؛ على مسرح الجامعة اصطف أبو جمال وجمال وعمر وسعيد لالتقاط الصور التذكارية. لم يشاركهم نافع فالتصوير من المحرمات التي لا يرضى عنها، كانت الصور تبدو ناقصة من دونه، فقد اعتاد الأربعة أن يكونوا رفقاء لا يكادون يفترقون، برغم انفصال نافع عنهم في السكن منذ عام، و انضمامه إلى زملاء آخرين.

بعد الحفل اصطحبهم أبو جمال إلى مطعمٍ اختاروه، احتفاءً بأول سورجي يتخرج في الجامعة، كما كان يقول لهم وهو يقدِّم لهم العشاء، في اعتزاز يرضي غرور جمال.

فرحة الثلاثة بتخرج جمال تبدو واضحة، وإن اشتغل كلٌّ منهم بهمومه الخاصة، وهواجسه الملحَّة. يحسب عمر الزمن فيما لو دخل المدرسة بعد السادسة، ولو لم يخفق في سنته

الدراسية الأولى، سيكون تخرجه قبل ثلاث سنوات، ولكن من يدري؟ ربما لو سبق موعده هذا لما أُتيح له الانتقال برفقة عمه إلى المدينة، ولما أكمل دراسته، لا بُدَّ أن الأمر مرتب بشكل دقيق من لدن عليم خبير، فَلِمَ التدخلُ في تدبير الله تعالى؟! فلو نظر الإنسان إلى الحياة بعد تمامها لما اختار بديلاً لما حدث؛ هذا لو عُرِضَتْ له البدائل! كلُّ خطواتنا نمشيها وفق ترتيب مقدَّر لا مجال للتدخل فيه، هكذا يستجلب عمر الراحة وهدوء البال، ولكنه لم يكن يجد هذا الهدوء عندما يتعلَّق الأمر بموت آسية. جمال يتمنى لو كانت أُمُّه تشاركهم هذه البهجة، فهناك قِسْمٌ للعائلات، وهي الآن وحيدة في البيت، ولكن حضورها غير ممكن في ظل وجود نافع، فقد امتنع عن مقابلتها أو السلام عليها منذ دخوله الجامعة، فهي ليست من المحارم اللاتي يصح له مخالطتهن. يشعر سعيد بأنه فقد شيئاً من جمال الأخ والصديق والزميل، سيبقى سعيد طالباً بينما يصبح جمال معلماً أو موظفاً، أو أي شيء آخر، ولكنه لم يعد طالباً كسعيد. يشعر نافع بأن التخرج شيءٌ أكثر بهجة مما هو عليه في الواقع، يبدو كحلمٍ يزداد بريقه، واستعصاؤه كلما دنا منه. بقي عامٌ يراه نافع طويلاً، فهو يستعجل العودة إلى السورجة، حيثُ تزداد حاجة أبيه إليه كل يوم بعد أن هدَّتْهُ الأيام، وأمضَّه الحزن على آسية. يتساءل نافع: كيف تضعضع أبوه أمام مصيبةِ الموت، وهو الرجل التقي المؤمن؟! وكيف يفقد تسليمه ورضاه بقضاء الله؟! لقد حاوره في ذلك كثيراً، وأغلظ له في القول، وتلك حدَّةٌ عُرِفَتْ عن نافع عندما يتعلق الأمر بما يراه مخالفاً لتوجيهات الدين. ثم إن أباه أصبح عاجزاً عن قراءة الخطبة يوم الجمعة،

وذلك ما ينذر بانتقال إمامة المسجد من بيت المطوع الذي حافظ عليها عقوداً، إلى بيت غرامة الخلف الذي يحاول تقديم ابنه (خلف) لإمامة الناس، لولا اعتراض (أبوعمر) وبعض أهل السورجة، تقديراً منهم للمطوع. نافع لا يرى لدى خلف بن غرامة ما يؤهله لإمامة الناس ودعوتهم، فهو لا يُمثِّل قدوةً للناس في الخير، فهو أول من أدخل التلفزيون إلى السورجة، الجهاز الذي يسميه نافع أبو الخبائث، لأنه يعرض الصور، والنساء والموسيقى. وخلف بن غرامة الوحيد الذي رفض أن تلبس زوجته العباءة التي أحضرها نافع لجميع نساء السورجة، بحجة أن زوجته تشاركه في الحرث، والاحتطاب، والرعي، ولبس العباءة يجعل الإمساك بأطرافها شغلها الشاغل. ثم هو لا يستطيع ارتجال خطبة مؤثرة، فكل ما يستطيعه أن يفتح خطبة الأسبوع من كتاب (الحكمة البالغة) لعبدالله المخضوب، ويقرأها على المصلين، ثم يؤم الناس بتلاوة تفتقر إلى أبسط أحكام التجويد. لم يكن رأي نافع في أبيه يختلف كثيراً عن رأيه في خلف بن غرامة، فكلاهما لا يقارن بمتخصص في الشريعة، درس فروعها، وأخذَ العلم من منابعه، وحفظَ أجزاءً من القرآن الكريم، وثنى الركب في مجالس العلم، وبين يدي العلماء.

إن خلف لا يريد سوى الوظيفة، ولا يهتم بنفع الناس وإرشادهم، ومحاربة البدع التي تمتلئ بها السورجة، وتنقية عقيدة أهلها من الشوائب. يعدُّ نافع الأيام والليالي ليتخرج في الجامعة، ويعود معلماً في السورجة، يربي أبناءها على الصلاح والتزام الدين الصحيح، لا الدين الذي يعلمهم المعلمون

الوافدون، خاصةً الأستاذ مصطفى الأزهري، معلم الدين في مدرسة السورجة المتوسطة؛ كان يسكن بجوار المدرسة، ويجلس بعد العصر على سطح غرفته. يتذكّر نافع حين مرَّ برفقة عمر في طريقهما إلى طاحون السورجة، فدعاهما الأستاذ مصطفى إلى صعود السطح والجلوس معه، وقدَّم لهما الشاي، كان يقرأ مجلة مليئة بالصور، ويستمع إلى أغنية في الراديو، لم ينسها نافع، لايزال يجد شجنها في نفسه بعد سنوات من سماعها، وخاصةً أنها ارتبطت في ذهنه بجلسته مع أستاذه، وبدمعة تحدرت على خدِّ المعلم. حين تحدَّث عنها نافع تذكرها عمر، وردَّد مقاطع منها، وقال: نجاة الصغيرة، وأغنيتها الرائعة «حبايبنا في الغربة عاملين إيه؟». سيكون أول ما يقوم به نافع عند عودته معلماً في مدرسة السورجة، أن يبين للأستاذ مصطفى أن سلوكه لم يكن تربوياً، وأنه وقعَ في عدد من المنكرات التي لا تليق بمعلم الدين؛ فقد كان حليقَ اللحية، ويقرأ مجلة مليئة بصور ذات الأرواح، ويدعو طالبين إلى مشاركته استماع الغناء. لم يكن نافع يومها يعلم بتحريم الغناء، فلم يخبره أحدٌ بذلك إلا عندما درس في معهد المدينة. في السورجة لا يشتغل الناس بسماع الأغاني كثيراً، ولكنهم يأنسون له عندما يُذاع في الراديو. كثيراً ما يطلب نافع من أبيه إغلاق الراديو عندما تتخلل الموسيقى بعض برامج الإذاعة، حتى البرامج الدينية تُفتتح أحياناً بالموسيقى. أيُّ غوايةٍ هذه؟! يفسِّر نافع ذلك بأنه غزوٌ يسعى الأعداء من خلاله إلى مزج الحق بالباطل، وتلك خديعةٌ تنطلي على البسطاء. حذَّر نافع الناس من ذلك من خلال منبر الجمعة، ولايزال أبوه يستمع إلى الإذاعة قبل النوم، ثم ينام والراديو يبث

البرامج والأغاني، فيضطر نافع إلى أن يوقظه ليغلق الراديو، فينهض مفزوعاً.

لم يكن عمر مستعجلاً على التخرج، حتى الفصل الصيفي الذي التحق به ألغاه قبل نهايته عندما ماتت جدتهُ فضَّة، فقد أَلِفَ الجامعة، وزملاءه فيها، وأساتذته الذين يمارسون الأدب قولاً وكتابة، وتعليماً. لا يدري أين سيحط رحاله بعد الجامعة، والتغيير يسبب له مزيداً من القلق والتوتر، حتى عندما يغير فراشه، فإنه لا يتسنى له النوم بسهولة. قَطَعَ أفكارهم أبوجمال بتقديم العشاء:

– حياكم الله على شرف أول سورجي يتخرَّج في الجامعة.

– احفظوا هذه الأولية يا أوباش. قالها جمال ضاحكاً.

– كلها سنة ويتخرج الثلاثة، ويصبح أربعة من أبناء السورجة جامعيين، وتعود كما كنتَ واحداً من الأوباش.

بعد أن فرغوا من العشاء، قال عمر وهم يغادرون المطعم: باسم جميع الأوباش نبارك لجمال بمناسبة تخرجه، ونشكرك يا عمّ على هذه الوجبة الدسمة.

(30)

لم يعد عمر يحلم بوسادته الرمادية. يوشك أن يستوعب أنه في مكان محكم، لا يمكن وصولها إليه، ولا عودته إليها، ولكن أمله لم ينقطع في أن يستلقي على ظهره. يحاول استعادة تلك البهجة التي شعر بها في ليلة احتفالهم بتخرج جمال. يستعيدها وقد أصبحتْ من الماضي الذي يزيدُ بريقَه مرورُ الزمن، كلقائه بآسية الذي عاش على تذكره زمناً، يحاول اجترار أنفاسِها، كلماتها، ملوحةِ دموعها، ملامحها، ضحكتها، عينيها اللتين تضحكان قبل فمها، جسدها اللدن. لم يكن عمر صاحب مغامرات غرامية، ولا يجرؤ على اجتراح علاقات جديدة، ولكن علاقته بآسية كانت ارتباطاً طفولياً، تحوَّل بفعل الزمن إلى احتياج، تحتاج إليه كما يحتاج إليها. يعتقد أنها هربت من احتياجها، وأصبحت لا تحتاج إليه، أما هو فقد عاش بعدها يزداد احتياجه إليها يوماً بعد يوم ولا يجدها. ترى هل كان موتها اختياراً؟ أم أن الموت فرض نفسه عليها؟ لا يظن أن آسية ستتمنى الموت يوماً، فقد كانت ممتلئة بالحياة، تعيش المستقبل قبل أن يصبح حاضراً، تعيشُهُ بالأمل والتطلع

والطموح. كانت تشجعه على إتمام دراسته، وتعده بأنها ستنتظره، مهما طال انتظارها. كانت بذلك تشارك في بناء مستقبله. ولم تجن من ثمرات مستقبله شيئاً. لقد كانت عطاء لا يعرف الأخذ، حتى الموت أعطته نفسها ولم تأخذ منه شيئاً. يشعر عمر بحزنٍ يشبه حزنه ذلك المساء الذي غادر فيه السورجة، دون شعور أحد، ولكنه يومها ذرف الدموع على قبر آسية، والآن لا تسعفه الدموع، وهذا ما يزيد لوعته.

يتمنى عمر أن يعيش ليلة تَخَرُّجِ جمال ثانيةً فقد كانت الأيام بعدها باردة، وباهتة، كانت سنته الأخيرة في الجامعة هادئةً، رتيبة، افتقد خلالها جمال، الصديق الذي كان يتفهَّم نفسيته، ويعرف علاقته بآسية، ومدى خسارته بموتها، ويشاركه همومه ومشاعره. اقترح جمال على أبيه أن يبيع سيارته لعمر، فآلت إليه بثمنٍ يسير، دفعه على أقساط بعد تخرجه. كان بوسعه أن يبيعها بثمنٍ أكثر نقداً، ولكنه نبلٌ عرفه من (أبوجمال) من أول يومٍ صحبه فيه إلى المدينة، ويدٌ أخرى يحفظها لجمال، ولم ينس أنه أول من منحه سريره لينام عليه أول ليلة نامها في المدينة. كان جمال يشبع نهمه المعرفي، ويساعده على التواصل مع من حوله، ومن خلاله عرف عمر كثيراً من الأساتذة والزملاء والمثقفين. لا يعيب في جمال إلا لجاجته وحرصه على استفزاز من يخالفه، وذلك ما كان يمارسه باستمرار مع نافع، بشكلٍ فج يأباه عمر وسعيد، ولا يكترث جمال لمعارضتهما. ذلك ما اضطر نافع إلى الخروج من السكن الذي يجمعهم، ليلتحق بزملاء آخرين، تلك الليلة التي

سماها عمر وسعيد ليلة هارون الرشيد، حين احتدم النقاش، بين نافع وجمال، حول المبالغات التي تعتري كتابات المؤرخين، وما يعتريها من عاطفية تنتقص موضوعيتها. طال الجدل بين نافع وجمال، حتى بلغ الفتوحات الإسلامية، قال جمال: هل تستطيع يا عمر أن تفرِّق بين الفتوحات الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي، وبين استعمار الدول القوية، للبلدان الضعيفة اليوم.

– هل تشكك في نوايا الفاتحين، والمجاهدين، أيها المؤرخ الكبير؟!

– أنا لا أتحدث عن النوايا، أنا أكلمك عن النتائج.

– النتائج واضحة، انتشار الإسلام، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد كما قال الصحابي العظيم ربعي بن عامر رضي الله عنه.

– دعنا من عصر الخلافة الراشدة، فتلك مرحلة لها خصوصيتها، ولا أحبُّ الخوض فيها، لكني لا أجد فرقاً كبيراً بين الفتوحات الإسلامية بعد تلك المرحلة وبين الاستعمار الغربي لبلدان العالم الثالث، فالمسلمون يقدمون مشروعهم الحضاري، ويحققون توسعاً جغرافياً وسياسياً، وعائداً اقتصادياً فيما يُسمى بالخراج، بل يتجاوزون ذلك إلى استرقاق الأعداء، وبيعهم في الأسواق، وتملك النساء وتحويلهنَّ إلى جوارٍ للمتعة، وماذا يفعل المستعمرون اليوم أكثر من ذلك؟!.

– أنتَ تُشبِّه المجاهدين والفاتحين بالكفار والملحدين الذين

يمصُّون دماء الشعوب، ويستحلبون ثرواتهم لتصب في خزائنهم، ثم يتركون بلدانهم وقد فرغوها من ثرواتها، واستخلفوا عملاء يقدمون لهم ما يحتاجون باسم وطني لا يستدعي مقاومة الشعوب؟

– ألم يقل هارون الرشيد عندما رأى سحابةً تمر في السماء: « أمطري حيثُ شئتِ فسيأتيني خراجك»؟ أليس دليل نظرة اقتصادية صرفة؟

– هذا دليل على مدى التوسع والمجد الذي بلغته الدولة الإسلامية في ذلك العصر الزاهر. وماذا تفهم غير ذلك أيها المؤرخ العظيم؟!

– أفهم أن السحابة لم تكن تعني للخليفة سوى مقدار الخراج الذي سيُجلب للخزينة، ولا تعني له أن يُغاث الناس، وأن يُمطروا، فليس مهماً أن تمطر في بغداد، أو في الشام، المهم أنها ستهطل على الرقعة التي تجلب الخراج لبيت المال، وبالاختصار، فإن هذه الرقعة الواسعة تساوي حسبة اقتصادية، وسياسية، قبل أي اعتبار آخر.

– ألأنك عرفت شيئاً في التاريخ، صرت تتطاول على رموز الأمة الإسلامية، وتتحدث عن أبرز شخصياتها كما يتحدث أساتذتك المستشرقون وأذنابهم يا خسيس؟! والله إنك تستحق الجلد على هذا الكلام، ووالله لا أسكن معك بعد تطاولك على هارون الرشيد، الرجل العظيم الذي كان يغزو عاماً ويحجُ عاماً ماشياً.

كان عمر وسعيد يعلقان على بعض مفرداتهما، ويحاولان التهدئة، لكن تهدئتهما لم تنفع بعد أن أقسم نافع أن يخرج وبدأ يلملم أشياءه، وهما يحاولان تأجيل خروجه إلى الصباح، ولكنه أقسم ثانيةً ألا يبيت في هذه الشِقَّةِ الظالم أهلُها. لزم جمال الصمت، كأن الأمر لا يعنيه. اقترح سعيد أن يخرج جمال لينام في بيتهم، ويبقى نافع إلى الصباح، ولكن نافع لم يقبل، بحجة أن هذا نصف حل، وهو يرفض أنصاف الحلول.

شعر جمال بتأنيب ضمير بعد أن غادر نافع المكان يحمل حقيبته، ومذكراته، وملابسه؛ وزاد سعيد تأنيبه باتهامه بالاستفزاز المتعمَّد لنافع، وأنه لا يقصد الحوار البريء. وعقَّب عمر بالسؤال عن جدوى هذه الحوارات التي لا تغيِّر في مجريات التاريخ شيئاً، وأنها مجرَّد فرد عضلات واستعراض ثقافي، يسعى كلُّ واحدٍ منهما إلى تأكيد قناعاته، من خلال محاولته فرضها على من حوله.

(31)

سجَّل نافع السورجة في الترتيب الأول ضمن اختيارات التعيين، بينما جاءت الاختيار الأخير لعمر، ومع ذلك فقد وجِّه الاثنان إلى مدرسة السورجة المتوسطة، نافع للتربية الدينية وعمر معلماً للغة العربية. لم يُرحِّب عمر بهذه النتيجة، فهو لا يرغب في العودة إلى السورجة، وإنما سجلها ليعتذر بتسجيلها لوالده الذي يحثُّه على العودة إلى السورجة، ولشغل الفراغ الخامس في سجل الاختيارات، ولم يكن يتوقَّع أن يوجَّه إليها من بين الاختيارات الخمسة، ويُهْمَلَ ما قبلها. تحقَّقَ لنافع حلمه بالعودة إلى السورجة معلماً لأبنائها، وإماماً لمسجدها، ومرشداً للناس إلى الدين القويم، وآمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وحاملاً لمشعل الهداية في السورجة.

في طريق عودتهما يحملان التكليف بالعمل في مدرسة السورجة، كانا يتذكران كيف كان الطريق المؤدي إلى السورجة ترابياً وعراً لا تسلكه إلا السيارات القوية، والآن أصبح معبداً، يسير فيه عمر بسيارته الصغيرة التي ورثها عن جمال؛ تستطيع

الوصول إلى السورجة، بعد أن كان ذلك حلماً منذ سنوات قليلة، وأعمدة الكهرباء تسير موازيةً للطريق حتى تصل السورجة التي أصبحت تضاء بيوتها بالكهرباء. يرى نافع أن الكهرباء قد جاءت ببلاء التلفزيون إلى السورجة، والذي أصبحت تقتنيه أكثر الأسر في السورجة. تولى كبر تعريف الناس بالتلفزيون خلف بن غرامة. أدخله إلى السورجة قبل دخول الكهرباء إليها، وكان يعمل على بطارية السيارة، لا بُدَّ من مقاومة هذا الشر الذي استشرى في السورجة.

استقبلهما معلمو مدرسة السورجة بحفاوةٍ بالغة، فكثيرٌ من المعلمين سبق أن درّسوهما. عمر ونافع هما أول معلمين يأتيان إلى المدرسة من أبناء السورجة، رحَّب بهما مدير المدرسة الفلسطيني، وأعدَّ أوراق مباشرتهما، ثم قال: جاء الآن من أبناء السورجة من يتحمَّل مسؤوليةَ أبنائها، سأكتب للإدارة التعليمية بتنازلي عن إدارة المدرسة لأحدكما.

قال نافع: أنت أستاذنا ونحن لم نخض تجربة التعليم بعد، لا بُدَّ أن نعمل بالتدريس أولاً.

قال المدير: أنا عازم عن التخلي عن الإدارة لأحد الزملاء، فبما أنكما جئتما فلا بُدَّ أن يتحمل مسؤوليتها أحدكما، فسنذهب مهما طال الزمن، ويبقى أبناء السورجة.

التفت عمر إلى نافع، فقال: أما أنا فليس لديَّ القدرة ولا الرغبة في الإدارة، ولا أنوي البقاء في السورجة بعد هذه السنة، فإذا قبل بها نافع فأعانه الله.

قال المدير: إذاً سأرفع تنازلي مرفقاً به اقتراح تكليف الأستاذ: نافع. اهتز لكلمة (أستاذ) قلب نافع، فهذه أول مرةٍ تُقال له، وهزَّ رأسه بالموافقة.

(32)

قرر عمر البقاء في مدرسة السورجة حتى نهاية حياته، ليضمن بذلك أن يكون بجوار آسية. يقضي بعض الوقت كل يوم بجوار قبرها. يشمئز عندما يتخيلها وقد وقع عليها ما يقوله نافع في كثيرٍ من خطبه، ومواعظه لأهل السورجة، لا يستطيع أن يتصور أحلامها وضحكتها، وقبلتها، ونهديها، وخديها، وعينيها، وقد رتع فيها الدود، لايزال يراها زاهيةً كآخر عهده بها، حين دسَّ لها الرسالة تحت الفراش. هي الآن كما هي، لن يُقدم الدود على تغيير ملامحها، قاتلك الله يا نافع، دائماً تذكرني بالموت، وبشاعته وقسوته، وكأنما خلقنا الله لكيلا يبقى الموت عاطلاً عن العمل.

أضفى وجوده على أسرته نوعاً من الأمان والارتقاء في المعيشة، فلم يكن لديه التزامات كبيرة يصرف فيها مرتبه سوى القسط الشهري لعمِّه، قيمة سيارته. وما تبقى من مرتبه يصرفه في بناءِ بيتٍ لأسرته. برغم معارضة نافع فقد اشترى عمر تلفزيوناً ملوناً لأسرته، ليكون أسبق إليه حتى من خلف بن

غرامة الذي كان تلفزيونه بلونين فقط. عندما قال ذلك لنافع، قال له: منافستك مع خلف بن غرامة غير شريفة، لست أدري أيكما أكثر ضرراً على السورجة وأهلها؟ كفانا الله شرك وشرَّ خلف بن غرامة.

لاحظ عمر تغيراً بدأ يظهر في نمط الحياة في السورجة، فغدا أهلها يعتمدون شيئاً فشيئاً على السوق في معيشتهم، وكان ذلك على حساب عنايتهم بمنتوجاتهم التي كانت تكفيهم فيما مضى، كانت السورجة تُصَدِّرُ الذرة، والسمن، والعسل، والأغنام. لا يشترون غير منتوجاتهم، إلا الرز، والقاز، والسكر، وملبوساتهم، ولذلك فلم يتأثر أهلها، بقيام الحروب المتتالية.

في المناسبةِ التي أقامها أهل السورجة لعمر ونافع بمناسبة تعيينهما معلمين في مدرسة السورجة تحدَّث عمر مع أبيه، والمطوع وغرامة الخلف، وسالم المهدي؛ سألهم عن الحرب العالمية الأولى، فلم يجد لديهم عنها خبراً، فانتقل بهم إلى الحرب العالمية الثانية، فوجدهم سمعوا بها ويجهلون تفاصيلها والأطراف المتحاربة. قال غرامة الخلف: لم نكن نعرف شيئاً عن هذه الحروب إلا بعد أن أحضر جدك عمر (الراديو)، نجتمع عنده نستمع إلى أخبار حرب فلسطين، وكنا نهتم بأخبارها، لأن المطوع كان ضمن الجيش السعودي هناك، كنا ننتظر أن يذيعوا بطولات أبو نافع، قالها ضاحكاً.

قال المطوع مبتسماً: لا تسخر مني يا غرامة، فقد وصلتُ إلى فلسطين، أما أنت فلم تخرج من السورجة في حياتك، حتى

فريضة الله لم تجرؤ على أدائها، وكَّلْتَ ولدك خلَف يحج عنك، وضحك الجميع بمن فيهم غرامة الخلف.

قال أبو عمر: تذكرون كيف صف أهل السورجة الرجال والشبان ببنادقهم، والنساء والأطفال على سطوح المنازل، فقد عاد المجاهد ابن السورجة الذي رفع رؤوسنا في فلسطين ضد اليهود.

يتذكر عمر متعة ذلك الحديث الذي يتمازح فيه الكبار بلطف، قاطعهم نافع بقوله: كانت الهزيمة حتمية، في ظل تفرق المسلمين وضعفهم، وضعف إيمانهم، وقتالهم تحت شعارات لا تمت للإسلام بصلة، وكثرة العملاء والخونة.

كانت هذه الخطبة الحماسية التي قدَّمها نافع مما لا يستوعبه كبار السن في السورجة، فلم يكونوا يشعرون بما يحدث خارج السورجة، قبل دخول الراديو إليها، إلا من أخبار قليلة يحملها إليهم الحجاج، أو المسافرون للتجارة، أو العابرون من السورجة. تتحول أخبارهم إلى أساطير تتكرر، حتى يأتي من الأخبار ما يستحق أن يحلَّ محلها.

لم يكن لدى عمر جرأة جمال على محاورة نافع، ومناقشته. وكثيراً ما كان يبقى صامتاً مع أن لديه ما يقول، ولكنه يشك في جدوى هذا الحوار، إذ يتمترس كل من المتحاورين، وراء قناعاته، ولا يتزحزح عنها. ونافع لا يحتمل مخالفة عمر له فهو يعدُّه قريباً منه، برغم معارضته لممارسات نافع؛ من القراءة على الناس، وتفسير الأحلام، ويعتبر ذلك ترويجاً للأوهام، وبحثاً عن الشهرة، وإشباع رغبة الشعور بالأهميَّة، واستغلالاً لحاجة الناس.

(33)

– أما زلت تسمع الأغاني يا شيخ مصطفى؟!

– لا أسعى إليها ولا تسوؤني.

– ألم تدرسوا في الأزهر حكم الغناء؟!

– درسناه، كما درسنا أيضاً أدب الحديث مع الذين علمونا.

– يجب ألا تغضب من كلمة الحق يا أستاذي.

– إلى الآن لم أسمع كلمة حق أو باطل، ماذا تريد أن تقول؟!

– لقد دعوتني أنا وعمر ونحن ندرس المتوسطة، للجلوس معك فوق سطح غرفتك، وكنا في المرحلة المتوسطة، وكنتَ تسمعُ أغنيةً في الراديو، وتقرأ في مجلة مليئة بالصور، وأنت تمثل قدوة بالنسبة إلينا، فأنت تدرسنا الدين؛ كان عليك ألا تقترف هذا الخطأ الشرعي والتربوي، وأنا أقول لك هذا من باب النصح والمحبة.

– مع أني مش فاكر، بس فين الخطأ التربوي والشرعي اللي بتقول عليه؟

– هي مجموعة أخطاء، أغاني وصور، وأمام طلابك.

– يا ابني، نظرتي لأبناء السورجة أنهم رجال ناضجون، وأنا أتعامل مع طلابي على هذا الأساس، بمن فيهم أنت يا أستاذ نافع. بعدين قضية الأغاني اللي أنت شايفها قضية القضايا مسألة خلافية، واعتبرني يا أخي مقلِّداً لمن قال بالجواز، أما الصور، فلو امتنعنا عن قراءة كل ما يحتوي صوراً، يبقى مش حنقرأ حاجة.

– هذا التساهل في المسائل، وتتبع الرخص الذي عُرف عن الأزهريين، وهو من البلاء الذي أتمنى ألا تكون أداةً لنشره في السورجة يا شيخ مصطفى.

– لستَ ملزماً بالاقتناع برأيي، ولا أنا ملزم باتباع رأيك. واختلاف الرأي لا يُفسد للود قضية كما يقول شوقي، والا رأيك إيه يا أستاذ عمر؟

– قال عمر: سقى الله تلك الأيام يا أستاذ مصطفى، قدمتَ لنا الشاي، وأشجيتنا بصوت نجاة الصغيرة، وأغنيتها: (حبايبنا في الغربة عاملين إيه).

– آه..كم أبكي لهذه الأغنية، أشعر بأنها تسأل عني أنا وحدي، قالها والدموع تترقرق في عينيه.

– قال عمر: أجل يا أستاذ مصطفى لقد تحدَّرتْ على خدك دمعة أدهشتني تلك العشية.

– قال نافع: لا حول ولا قوة إلا بالله، بلغ بنا الأمر أن تُبكينا أغنية.

– قال الأستاذ مصطفى: ليس البكاء عيباً يا أستاذ نافع، فالله تعالى هو الذي «أضحك وأبكى».

– قال نافع: فرقٌ بين عينٍ تدمع من خشية الله، وأخرى تبكي طرباً لسماع أغنية.

– قال عمر: يا نافع ليس الغناء كُلُّه طرباً، إن منه بكاءً، ومنه رثاءً، ومنه شكوى، وإن فيه لغةً لا يفهمها إلا أصحابُ القلوب الرقيقة.

– قال نافع: لقد نجح الأعداء في تخديرنا بهذه الأغاني التي أخَّرَتْ الأمة، وأشغلتها عن التمسُّك بدينها وعقيدتها، والارتباط بتاريخها ومجدها.

– قال عمر: لا غِنى للناس عن الفن والأدب، من دونهما تصبح الحياةُ جحيماً لا يُطاق، فعندما لا نجد الحياة التي نحلم بها، فلا بُدَّ لنا أن نُجهد أنفسنا لتعويضها عن هذا الإجداب في الحياة، بأن نصوغَ عالماً من الفن والأدب.

– قال الأستاذ مصطفى: يا أخي، دول مش عايزين يفهموا أن الغناء يتعدد، وتتعدَّد أحكامه، إلى درجة أن الغناء اللي بيتكلّم عليه المحرمون مش هو الغناء اللي بيتكلَّم عنه المبيحون، وجاء المقلدون فأطلقوا التحريم على الكل، والمبيحون وقعوا في المطب نفسه فأباحوا الغناء بإطلاق.

– قال نافع: الالتزام بالدين هو الحل الوحيد، وما سواه أوهام، في رؤوسكم. وأرجو أن يبقى رأيك هذا يا شيخ مصطفى

خاصاً بك، وألا تشيعه بين الطلاب.

– أولاً: إحنا بنتحاور في مسألة علمية، مفيش داعي يا حضرة المدير تمارس سلطتك الإدارية في الحوار. وبعدين أنا دَرَّسْتُ لك المرحلة المتوسطة كاملة يا نافع، هل تتذكَّر أني في مرة حاولت التشويش عليكم، وذكر آراء غير المقررة في المنهج، برغم أن معظم مسائل الدين اللي بتدرسوها فيها أقوال أخرى، ولكل قول أدلته، وقد رجح عندي بعض تلك الأقوال غير المقررة، ولكني ألتزم بالعقد اللي بيني وبين الوزارة، في تدريس مقرر مُحدَّد.

– قال عمر: نافع لا يقصد يا أستاذ مصطفى.

– والا يقصد.. أنا معنديش مشكلة مع الحوار اللي يبقى في حدود المعرفة.

جاء جرس بداية الحصة الخامسة في وقته، فقد كان باباً للخروج من هذا الحوار المحرج لعمر، بين نافع وأستاذه.

(34)

يعجب عمر لسرعة تأثُّر أهل السورجة بأفكار نافع، وانقيادهم لآرائه، وثقتهم بما يقول؛ استطاع أن يغير كثيراً من عاداتهم التي عاشوا عليها حِقَباً من الزمن لا يعرفون مداها. هل كانت عاداتهم آيلة للسقوط؟ أم أنه بريق الخطاب الموشَّى بالآيات والأحاديث وأخبار السلف الصالح، فقد كان كلامه يقع من أهل السورجة موقع التأثير الذي لا يُقاوم. يعترض عمر على نافع عندما يُحَمِّل بعض الأدلة التي يوردها ما لا تحتمل، أو يحملها على غير وجهها، أو يحصرها في معنىً واحدٍ، مع احتمالها لغيره من الأوجه ذات الرجحان؛ ولكن أهل السورجة لا يلتفتون لمعارضة عمر، ويعتبرون ما يدعو إليه نافع واجباً، وما لا يرتضيه حراماً، وكأنَّما لا توجد أحكامٌ تكليفية أخرى من قبيل المكروه والمندوب والمباح.

يعارض عمرُ إسقاطَ كثيرٍ من الأعراف التي يعتقد أنها تحافظ على توازن مجتمع السورجة، ولُحمَتِهُ؛ خاصةً ما لا يتعارض مع مقاصد الشريعة، فهو مُطَلِعٌ على كثيرٍ من مسائل

الشريعة، وإن لم يكن متخصصاً وملماً بالمسائل كنافع الذي كان ينبِّه في خطبه إلى الأمور التي يلاحظها على أهل السورجة. وقد اصطفى عدداً من الطلاب الذين تأثروا به، فأصبحوا عيوناً له يبصر من خلالهم ما يدور في السورجة، ومن على منبر الجمعة يقول: «ما بال أقوامٍ يفعلون كذا وكذا». وربما توجه بالنصيحة مباشرة، إلى من بلغه عنه شيءٌ ينكره.

في زواجه قرَّر نافع أن يستثمر تجمُّع الناس لتقديم درس أو موعظة، عوضاً عن الطرب، والرقص، والمخالفات التي يقترفونها في حفلاتهم. لم يعترض أحد، وكان حفل الزواج، محاضرة، ختمها المحاضر بحديثه عن الموت، الحقيقة الكبرى كما يُسميه. قام عمر قبل أن يخوض الشيخ في تفاصيل لا يطيق عمر سماعها، ومن تلك الليلة أصبحت المحاضرات في احتفال الزواج عرفاً جديداً في السورجة، يتفاخرون بشعبية الشيخ الذي يدعوه كلُّ واحدٍ في مناسبة زواجه. كان آخر عهد السورجة بالطرب، في زواج سالم المهدي وتركية الأهدل. شارك في الرقص جميع أهل السورجة، حتى المطوع، كان يضفي وقاراً على صف العرضة، التي تستخف أهل السورجة، يتخللها إطلاق النار. في تلك الليلة خلعت السورجة رداء حزنها على حسن الذيب. بعد عام ماتت العروس، وهي تلد بنتها سعدية، زوجة نافع. ما بين زواج تركية الأهدل، وزواج بنتها سعدية، أقفرتْ السورجة من الأفراح، وتتالت عليها الأحزان والمآتم، وإن لم يبدُ من مظاهر الفرح في زواج سعدية إلا لعب صغيرات السورجة على ألحان الأناشيد الإسلامية، أما الرجال فكان اجتماعهم

لاستماع الموعظة، ثم تناول وليمة العرس بعد صلاة العشاء.

لم يكن عمر منتبهاً لما يقول الشيخ، فقد كان مشغولاً بالتفكير في تركية الأهدل؛ هل تشعر وهي في جبل حالية بفرح بنتها؟ هل تشاركها الفرحة كأمهاتِ العرائس؟ وإن فرحت فهل فرحها يشبه فرح سعدية التي تعبِّر عنه بضحكة، أو ارتعاشة في داخلها، أو تنهيدة رضا، أو دمعة تترقرق؟ يشعر بأن زمن الأفراح في السورجة يحتضر، برغم مظاهر الحداثة التي يحسبها الظمآن ماءً؛ فالطريق عُبِّد، ولكنه يشعر بأن أول من سلك الطريق خارجاً من السورجة هي الأفراح البريئة. أضاءت الكهرباء بيوت السورجة وشوارعها، فاستطاع أهل السورجة رؤية الشوارع والميادين، المضاءة ليلاً، ولكن لم يعد بوسعهم أن يتأملوا صفاء السماء ونجومَها. والهاتفُ أصبح في كلِّ بيوت السورجة، أداةً لثرثرة النساء، وانتشار الإشاعات، وخدمة النمائم. يرى عمر بجوار كُلِّ بيتٍ في السورجة سيارة، ولكنها في كثيرٍ من الأحيان تأخذ أبناء السورجة إلى غير رجعة. تملؤه الشكوك حول أفكاره، هل يأخذ نافع السورجة إلى حالٍ أفضل؟ أم أنه يفرغها من عاداتها، ولا يُوجِد بديلاً مناسباً؟ في كلِّ الأحوال كانت السورجة تعيش تحولاً فجائياً مؤذياً، وإن كان عمر يؤمن بأن نافع ليس غبياً، ولكنه التعصب والبحث عن الشهرة، وإشباع الشعور بالأهمية، يأخذ حتى الأذكياء، فيسلك بهم طرقاً دون أن يحسبوا حساباً لنهايتها.

(35)

في كلِّ مرةٍ يرى عمر أحد السورجيين يُنقل على أكتاف الرجال إلى جبل حالية، يتأكد له بطلان كلام (جوزيف ماكويز) الذي زعم قبل مئة سنة أن هيبةَ الموتِ تحتضر. جلس عمر بجوار سور مقبرة السورجة، ينظر إلى شواهد القبور، يحاول تذكر أصحابها، يخشى أن ينسى ترتيبهم، ينظر إلى قبر أمه. دلّه على قبرها أبوه، في يوم موت جدته فضَّة، كما دلَّه على قبر أم نافع. في صفٍ تالٍ قبر جده عمر، ثم حسن الذيب، ثم تركية الأهدل، وجدته حالية، وآسية، ومشعان، وجدته فضَّة، واليوم يحلُّ المطوِّع ضيفاً على جبل حالية. هنيئاً له لقاء آسية، ترى كيف سيكون لقاؤهما؟ يفصل بين قبريهما مشعان، وفضة، تبدو له تركيبة الساكنين في جبل حالية أكثر انسجاماً من الساكنين في السورجة.

يشعر عمر بأنَّ ضعفه يوازي قوة نافع الذي يحمل نعش أبيه ويمشي بخطىً ثابتة، ثم يتقدمه إلى الحفرة الضيقة، ولا يدري عمر ماذا فعل هناك قبل أن يخرج فيشارك الناس في إهالة التراب عليه، ثم يقف في الناس واعظاً، وداعياً، وكأنما غطى

والده لينام قليلاً ثم يقوم لصلاة الظهر مع أهل السورجة.

أصرَّ نافع على هدم صِوان العزاء، لأن التجمع للعزاء من النياحة المنهي عنها، وبينما كان عمر وأبوه وبعض أهل السورجة يحاولون إقناعه بحاجة الناس إلى الصوان فالبيت لا يتسع للمعزين، ولا للمستقبلين قال:

– وما الداعي للمستقبلين؟! لقد عزيتموني جميعاً، فما ضرورة بقائكم هنا؟!

– قال أبو عمر: كلنا نتقبل العزاء في المطوع فهو أخونا ومطوعنا، وخسارتنا بفقده لا تقل عن خسارتك.

– أرجوكم لا تضطروني إلى تصرف لا يناسبكم. فلن أُقيمَ عزاءً بدعياً مهما كلَّف الأمر.

– قال خلف: لا أرى أن هناك بدعة في أن نشارك في تلقي العزاء، في كبير السورجة، وعمدتها.

– قال نافع: هذه من مسائل العقيدة التي لا تفهمها يا خلف، فلا تتكلم فيما لا تحسن.

– غضب غرامة الخلف لاتهام ابنه بالجهل، فقال: إذا لم تتركنا نقيم عزاء المطوع في بيته، فسنقيم له عزاءً في واحدٍ من بيوتنا.

ولما سمع نافع صوت الشيخ الحصري، تركهم واتَّجه إلى المسجِّل الذي أحضره الأستاذ مصطفى الأزهري وأغلقه قائلاً:

هذه بدعةُ أخرى، تريدون أن تؤثموا بها أبي في قبره. مَن أراد أن يعزيني فسيجدني في المسجد في أوقات الصلاة، ولن أستقبل أحداً فيما عدا ذلك. اقترح غرامة الخلف نقل الصِوان إلى جوار المسجد، فالمسجد هو المكان المناسب لعزاء المطوع، رحمه الله.

هذه المرة الأولى التي يواجه فيها أهلُ السورجة آراء نافع بالمعارضة والرفض. لم يكن نافع يأبه للمعارضين، عندما يتعلق الأمر بشيءٍ يراه من الدين، فكثيراً ما يردد أنَّه لا يخشى في الحق لومةَ لائم. بعد صلاة العصر خرج معهم من المسجد ليقيم في الصِوان، ثم لم ينقطع المعزون في اليومين التاليين، فقد كان المطوع شخصية معروفة ومحبوبة، كان مصدر طمأنينة لأهل السورجة، يشاركهم همومهم ويدعو لهم، ويحلُّ مشكلاتهم، ويرقي مرضاهم، مع أنَّه بدأ يذبل شيئاً فشيئاً بعد موت آسية، حتى كان ذلك الصباح حينَ لم يحضر لصلاة الفجر، لما فرغ نافع من الصلاة عاد مسرعاً إلى بيت المطوِّع ليطمئن عليه، فوجده ميتاً في فراشه.

كما عاش المطوِّع بهدوء رحل بهدوء، مرَّ بالسورجة بهدوء، وغادرها بهدوء أيضاً. حسده كبار السورجة على هذه النهاية الهادئة، وبدؤوا يفكرون بجدية في الطريقة التي سيغادرون بها السورجة. تحدَّث نافع إلى الحضور عن حسن الخاتمة، وذكَّر الحاضرين بالآيات التي أمَّ بها المطوِّع الناس في صلاة العشاء، واستشهد بالحاضرين ممن صلَّوا معهم العشاء تلك الليلة، فقد كان مما قرأ قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا

الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، لم يختلف الحاضرون حول أهلية المطوع لهذه الكرامة، وهذه الخاتمة الحسنة.

لاتزال صورة المطوع تملأ نفس عمر، لحيته الحمراء، وجهه الأبيض، أنفه الدقيق. يتذكّر عطفه عليه في طفولته، كان يناديه، ليأتي إليه، ثم يمسح بكلتا يديه رأسه، تتخلل أصابعه شعره، يكرر ذلك كلما رأى عمر، عندما ذكر ذلك عمر في مجلس العزاء قال نافع: قال الرسول صلى الله عليه وسلّم: «من مسح على رأس اليتيم لم يمسحهُ إلا لله كان له في كُلِّ شعرةٍ مرت عليها يده حسنة».

شجَّع عطف المطوع عمر على التردد إلى بيته، وارتباطه بآسية الحبيبة التي تلتقي أبيها اليوم. يستطيع عمر تخيل لقاء آسية بأبيها، ولكنه يتمنى أن يشهد اللقاء ولو كان ثمن ذلك حياته، فليس في السورجة ما يستحق الحياة من أجله. حتى الرجل الذي كانت تباهي به السورجة رحل، وبرحيله رحل النموذج الأخير للتدين الصحيح، ليحلَّ محله نموذجٌ للتدين المغلوط؛ هكذا كان عمر يصف حال السورجة، وإن لم يجرؤ على مواجهة نافع بذلك، رحل المطوِّع الذي بقي يقرأ القرآن على عمر حتى الصباح. يتذكر قراءته بهم في الصلاة وصوته المتدبِّر الذي لا يختلف عن صوته عندما يتحدث. يتذكّر نصيحته عند مغادرته السورجة بعد مرضه: « عليك بآية الكرسي عند النوم وبعد كل فريضة، فإن لك بها حارساً من الملائكة، وطارداً للشياطين، وعليك بسورة الإخلاص والمعوذتين، في الصباح

والمساء، فإنها تكفيك من شرور كلِّ شيء، وتحفظك من شرِّ الجانِ وعين الإنسان» مازال نافع يتحدَّث عن حسن الخاتمة، وأنها عاجل بشرى المؤمنين، ويدعو الناس للعمل الصالح ليظفروا بها، يشعر عمر بأن نافع رجل قوي، لا يخاف الموت، ويثبت في مواجهته بصلابة، وأنه يتعامل معه كصديق، يحسده على هذه القوة التي يعتقد أنَّه يستمدها من إيمانه الراسخ. يشعر عمر بتفاهته وضعفه واستسلامه، أمام الموت، عاوده الشعور بالإعجاب بنافع المؤمن الذي لا يخاف الموت، ولا يكترث لنزوله بأحبِّ الناس إليه، يتمنى عمر أنه يملك قوَّة نافع وإيمانه. هذا التدين الذي يصفه بالمغلوط خيرٌ من حياة القلق والتردد التي يعيشها. يُذعن لهذا الشعور اليوم كما أذعنَ له يوم موت آسية، حين كان نافع قوياً صامداً، بينما يقف عمر أمام فكرة الموت خائر القوى، مهزوماً، لا يقوى إلا على البكاء، حتى البكاء لم يكن يستطيع البوح به، فماذا يقول الناس لو رأوه يبكي آسية؟ السورجة لا تعترف بحبِّ النساء، ولا بكاء الرجال، فإذا بكى رجلٌ فتلك طعنةٌ في رجولته، وسبَّةٌ تلاحقه الدهر. بوسعه الآن أن يبكي آسية والمطوع معاً، قد يتهمونه بالخَوَر، ولكن لا أحد يستطيع إطلاق الإشاعات، فهو يبكي المطوِّع الذي حزن لموته أهل السورجة جميعاً.

(36)

كان صيف ١٩٩٠م جميلاً بالنسبة إلى عمر، برغم طبول الحرب التي كانت تقرع، فقد كان الحلفاء ينتظرون نهاية المهلة المحدَّدة لخروج الجيش العراقي من الكويت، أو التدخل العسكري لإخراجه بالقوة. أكثرُ المحللين يتوقعون أن ينسحب الجيش العراقي في اللحظات الأخيرة، ولكنه لم يفعل، وألحق به الحلفاء هزيمةً قاسيةً. أعيدت الكويت إلى أهلها، كانت مشاهد الحرب تؤرق عمر، ولكن وجود أبو جمال وزوجته وجمال وسعيد، وأسرتيهما الصغيرتين، قد شغله عن التفكير بعمق في الحرب، التي تدور رحاها قريباً، فإجازة الصيف التي أطالتها ظروف الحرب، قد لمَّت شمل الأصدقاء، جمال وسعيد ونافع وعمر، كانوا يقضون أوقاتاً طويلة في الحوارات، واجترار الذكريات، وإن كان اشتغال نافع برقية المرضى الذين يأتون من أماكن متفرقة إلى مسجد السورجة منذ صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء، ليقرأ عليهم نافع قراءةً جماعية، ثم يخصص قراءةً أخرى لمن يحتاج إلى القراءة الخاصة، ويوصيهم باقتناء زيت الزيتون والماء المقروء عليهما، من غرفة مجاورة للمسجد،

يسكنها العامل الهندي الموكل إليه تنظيف المسجد وبيع الزيت والماء للمرضى، بعد توزيعه في جالونات صغيرة، هذا الانشغال قلّل فرص مشاركة نافع لأصدقائه في جلساتهم، ورحلاتهم في السورجة وجبل حالية. هذه الحجّة الظاهرة لغياب نافع، وأشياء أخرى زهّدتْه في تلك اللقاءات، فالموضوعات التي يتناولونها لا تروق في أكثر الأحيان لنافع، واختلافه الدائم مع آراء جمال التي يتعمد طرحها بمناسبة ودون مناسبة، ليستمتع باستفزاز نافع، وأحياناً سعيد، وإن لم يوافقه عمر، فليس من السهل استفزازه، فقد عرف غرض جمال من محاولة التعرض للثوابت بالنقد، أو السخرية. اكتشف أن جمال لا يستمتع بشيء قدر متعته بالجدل، وإغضاب مجادليه، في حين ليس لديه ما يخسره، فهو لا يتعصب لشيء، وليس لديه ما يغار عليه، ولا يُهِمُّهُ أن يسمع أقذع الكلمات من الطرف الآخر، فيتلقاها بابتسامة صفراء باردة. لا يتورَّع جمال عن التدخين بحضور نافع وهذا ما يؤذي مشاعره، ويشعره بأن المنكر يُمارس أمامه، دون قدرته على تغييره، مع أنه قد نهى جمال عن التدخين وبيّن له حكم الشرع فيه وأضراره الصحية، ولكن جمال يفاجئه بمعرفته بالإحصاءات المتعلقة بأضرار التدخين، ومع ذلك فهو يقول: «السيجارة حبيبتي، ولن يفرق بيننا إلا موت أحدنا». يشعر عمر بأن لا جدوى من هذه الحوارات مع جمال، خاصةً بعد أن اكتشف في هذه الإجازة أن جمال ليس بالجرأة التي كان يحسده عليها، فهناك ممارسات أخرى لا يجرؤ على فعلها أمام السورجيين، كتدخين الحشيش، والأكل في نهار رمضان، عرف ذلك بالصدفة، دون شعور

جمال، وتجاهله، إلا أنه لم يعد مثالاً للوضوح والصدق مع الذات، كما كان ينظر إليه.

تستحوذ متابعة أخبار الحرب، عبر الإذاعة البريطانية، على جزء كبير من وقتهم، ويقضون وقتاً لا يقل عن ذلك في تحليل الأخبار، وافتراض سيناريوهات لما سيحدث في المستقبل. تَطَرَّقَ الحديث إلى التَّغيُراتِ التي طرأت على السورجة وأهلها. يأسف عمر من تغير عادات أهل السورجة، وتخلخل بنية مجتمع السورجة، وانسياق كثيرٍ من أهلها وراء تقليعات جديدة، لا يدري عمر من أين يأتون بها ولكنها لا تُناسب سياقات الحياة في السورجة.

– قال جمال: هذه سنن طبيعية في ترقي المجتمعات، عبر التاريخ، وهذا ما وصفه ابن خلدون بقوله: « إن أحوال العالم والأمم ونحلهم لا تدوم على وتيرةٍ واحدة، ومنهاجٍ مستقر، فإذا تبدَّلت الأحوال جملةً، فكأنما تبدَّل الخلق من أصله»

– قال عمر: ولكني لا أرى الأمور تسير إلى الأفضل، فكيف تسمي هذا التغيير ترقياً؟

– قال جمال: لا أحد يعتبر تغيير مألوفه شيئاً جيداً. ولكن لِمَ لا تشكِّل تياراً معارضاً لهذه التغييرات؟

– قال عمر: لقد فكرتُ، ولكنَّ ذلك سيدخلني في صراعات، لا أحبها، ولن أجني من ورائها سوى القلق ووجع الرأس.

– قال جمال: هذه السلبية، والاتكالية التي تتيح الفرصة

للأغبياء والمتعصبين تحريك المجتمعات كما يشاؤون، مشكلة هذا العالم أن الأغبياء والمتعصبين واثقون دائماً بأنفسهم، أما الحكماء فتملؤهم الشكوك.

– قال سعيد: ما لكم وللناس، دعوا الناس يعيشون حياتهم بالطريقة التي تناسبهم. تَحكَّموا في أنفسكم، ودعوا السورجة وأهلها.

– قال جمال: سترون التغيرات الأكثر فجائية بعد هذه الحرب، فالحروب أعتى الأحداث وأوسعها تدميراً لكل ما له قيمة إنسانية. لم يحدث أن ضلَّل شيءٌ أذكى العقول، ولا سفَّه أسمى ما عرفه الإنسان بقدر ما تفعل الحرب.

يشارك أبو جمال في الحوارات التي تدور، ويدلي برأيه منطلقاً من مقارنة ما يحدث اليوم بما عاصر من حروب، ويحيلهم عندما يخالفونه إلى انتظارِ النتائج التي لن تختلف عما رأى، فيذعنون بحكم سلطته لا بحكم اقتناعهم. في أحيانٍ أخرى تشاركهم أم جمال التي لا يعنيها من الأمر إلا ضحايا الغزو من الأطفال والنساء والمشردين على أيدي عربٍ مسلمين. في كُلِّ مرة تلمِّح إلى موضوع زواج عمر الذي تأخر عن أقرانه، حتى جمال وسعيد ونافع تزوجوا وأصبح لكل واحدٍ منهم أولاد، بينما هو في الخامسة والثلاثين ولايزال وحيداً.

– قال عمر ضاحكاً ومشيراً إلى جمال وسعيد: انظري يا عمة إلى قلق أصحاب الزوجات والأولاد، ونحن مقبلون على حرب لا يعرف نتائجها إلا الله. القلق من المستقبل يقضُّ مضاجعهم،

بينما أنا لا أهتم للمستقبل، لأني غير مسؤول إلا عن نفسي، ويمكنني الفرار في أي اتجاه إذا لزم الأمر، فليس عندي ما أخسره.

– قالت: وقد أثَّر فيها قوله، وأخذتها الشفقة على ولديها وأولادهما، الله يحفظهم ولا يريني فيهم مكروهاً، ويكفينا شرَّ من له شر.

– قال جمال: لا تصدقيه يا (أم جمال) والله إنه أشد قلقاً من جميع الآباء في السورجة.

– ضحك عمر وقد أسِفَ على إزعاجها وقال: إذا لقيتِ في السورجة بنتاً تقبل بي أنا أتزوجها اليوم.

– قالت أم جمال: كل بنت تتمناك؟!

– قال جمال ضاحكاً: هذا واحد مُعقَّد، يقضي وقته في القراءة، والجلوس في المقبرة، من هي التي ترضى به؟!

– قالت: لن تنتهي إجازة الصيف حتى أزوج عمر، أحسن بنت في السورجة، لتعرفوا من هي أم جمال.

– قال عمر: بس تكون جميلة يا عمَّة، ولا تكون من آل المهدي، ولا من آل مشعان، ولا من آل غرامة، ولا..

– قاطعه أبو جمال قائلاً: قل ما أنت ناوي تتزوَّج وريِّح عمَّتك.

– قال عمر: أنا جاد، فلن أصاهر هذه الأسر، أنا ابن السورجة

وأعرف طبائعهم، أما آل الأهدل، وآل نعيم، وآل زاهر، فلا مانع عندي من مصاهرتهم.

وجدت أمُّ جمال الفتاة المناسبة التي رضيها عمر، زهرة بنت الأهدل، ومع ذلك فقد بقي يُقدَّم رجلاً ويؤخر الأخرى سنوات، قبل أن يُقدم على الزواج بها.

(37)

يشعر عمر في مرقده في جبل حالية بطمأنينة، حيثُ أمن أنه لن يشارك في أيِّ معركة، ولن يُؤسر أو يُقتل في حرب، ولن تصله أخبارها، برغم افتقاده وسادته الرمادية، فإنَّه يمكنه التعود على فقدانها، أما مواجهة العسكر المدججين بالسلاح فذلك ما لا يطيق، ولقد عاش حياته يخاف أن يعتقله عسكري ليجعله عوضاً عن سجينٍ هارب، كما حدثَ لنجاح الموجي في فلم (التحويلة)، حتى عند نقاط التفتيش يتصور أن يتورَّط بالخطأ في تهم لا يعرف سببها، ولا يحسن التخلص منها. فكان يتلعثم كلما وقف أمام شرطي، يتذكَّر الورطة التي وقع فيها عبد المنعم مدبولي، وعادل إمام في فيلم (إحنا بتوع الأتوبيس).

هنا في جبل حالية يتأمل عمر حرب تحرير الكويت التي تابعها عبر الإذاعة البريطانية، فقد أشغله عن التفكير فيها بعمق وتأمل وجود جمال وسعيد؛ اللذين لم يتركا له وقتاً للتأمل أو التفكير. مضتْ تلك الإجازة على طولها سريعةً وممتعة. أتاح له مجيء (أبوجمال) وأسرته أن يستضيفهم في

بيته الذي ابتناه بجوار بيت أبيه، ويسهر على راحتهم وتوفير ما يحتاجون. يتمنى أن تطول إقامتهم ليَفِيَهُم ديناً قديماً في ذمته، حين أخذوه إلى المدينة للدراسة. يتذكّر نومه أول ليلةٍ له في المدينة، على سرير جمال، حَرَصَ على أن تكون غرفة نومه الخاصة من نصيب جمال وزوجته وولديه.

مع أنها ليست الحرب الأولى التي يعيش أجواءها عمر، فميلاده قد ارتبط بالعدوان الثلاثي على مصر، ثم أعقبتها ما يُسمى بنكسة الخامس من حزيران، ذلك الاسم الذي يضحك له عمر معجباً بقدرة العرب على اختراع الأسماء التي تساعد على ابتلاع الهزيمة. كما يسمون حرب (١٩٤٨م) بالنكبة، وكأن لا يد لهم بردها، نكبة وقعت وانتهى الأمر، وهذه نكسة سرعان ما تمر وتنسى، ولكنهم لا ينسون أبداً حرب (١٩٧٣م) فيسمونها حرب العاشر من رمضان، وحرب أكتوبر، والعبور، والانتصار، والثأر، والكرامة. الحرب لا بُدَّ فيها من غالب ومغلوب، فإما أن نكون غالبين، وإما فلتكن نكبة أو نكسة. عاصر عمر حرب المليون شهيد التي خاضها الجزائريون لتحرير وطنهم. والحرب الأهلية اللبنانية التي أكلتْ الأخضر واليابس. والحرب الإيرانية العراقية التي دامت نحو عشر سنين عجاف، وقتل خلالها الآلاف من الطرفين، دون أن يعرف لها نتيجة. هذا غير الحرب طويلة المدى على الشعب الفلسطيني. ثم أنساه احتلال الجيش العراقي لدولة الكويت هذه الحروب جميعَها، حين أصبح أبناؤها خلال ليلة واحدةٍ بين محاصرٍ أو مقتول أو مشرد أو أسير، وما تبع ذلك من حرب على العراق انتهت باحتلاله.

وحرب بين اليمنين الشمالي والجنوبي التي انتهت بيمنٍ واحد، وحروب أخرى في فيتنام وأفغانستان، وفوكلاند، وكوسوفا والشيشان، والصومال، وجنوب السودان، ودارفور.

(38)

– مازلتُ في انتظارك يا عمر، حذار أن تتزوَّج فقد اقترب لقاؤنا.

– ولكن نافع لن يوافق.

– نافع صديقك ويحبك، وسيبارك زواجنا.

– نافع تغير يا آسية، لقد أصبح مطوع السورجة، وعمدتها، وأغنى رجالها، أصبح شريكاً لسالم المهدي، يملكان محطَّة البنزين، والمجمع التجاري والسكني.

– لا رأي لأحد بعد رأي أبي؟!

– أبوكِ؟! أليس عندكم في جبل حالية؟!

تبدو آسية أكثر امتلاء وإشراقاً، إلا أنَّه لا يستبين ملامحها، اقترب ليضمها إلى صدره ويقبلها؛ تذكَّر اليمين الذي قطعه على نفسه، ولكنه برغم ذلك ضمها إلى صدره. أفاق وقد التف ذراعاه حول وسادته الرمادية، يملأ صدره شعور بالفرح، يشبه ذلك

الشعور الذي عاشه في تلكَ الليالي التي لقي فيها آسية. تبدَّد الحلم سريعاً، وإن بقيت خيوطٌ من البهجة، بددها طوفان الحسرة، فقد شعر بأنه يفقد آسية للمرة الثانية؛ كانت قريبة منه، وفي لحظة صارت أبعد ما تكون عنه، ينظر إلى وسادته لعلها تكون آسية، ولكنها لا تكون. يحيطه الأسى، وتعاوده الكآبة، ينتظر أذان الفجر، يحاول البكاء فيعجز عنه، فلم تكن تسمح أعراف السورجة لعينيه بسحِّ الدموع؛ حتى تجمَّدَ الدمعُ فيهما، كان آخر عهده بالدموع يوم موتِ المطوِّع ولا يدري أغفرها له السورجيون أم أنهم لايزالون ينظرون إليه برجولةٍ تبللها الدموع. يا لهذه الورطة أن تكون رجلاً في السورجة. المرأة في السورجة متورطة أيضاً فطالما كانت ضحيةً للرجل: حالية ألقتْ بنفسها ثمناً لشهوة رجل، وخذلان رجل، ولا يستبعد عمر أن يكون لجده عمر دورٌ في كراهة جدته فضَّة للرجال، لكيلا يشاركه مال أبيها أحد، وتركية الأهدل ضحية سالم المهدي ومشعان الساحر، وآسية ضحيتهما أيضاً.

يشعر بفراغ قاتل يملأُ صدره، وخوفٍ لا يعرف سببه، وحزنٍ يتخلل جميع خلايا جسده، لا يشعر بشيءٍ سوى الخوف والحزن، والتوجُّس، والوقت لا يتحرك، فكر في الغد ماذا سيفعل، وكيف سيلقى طلابه وزملاءه في المدرسة. لن يستطيع إخفاء علامات الكآبة التي تظهر على ملامحه، وصمته، وذهوله، والهالات السود حول عينيه، كُلُّ ذلك سيثير تساؤلات من حوله.

يحاول استعادة ملامح آسية، فلا يستطيع اعتقال صورتها، ولكنه يتذكر بعض كلامها، فكّر أن يعرض هذه الرؤيا على

نافع، فهو يعقد جلسة بعد صلاة الفجر يفسِّر أحلام المصلين، تستمر في بعض الأحيان إلى شروق الشمس، ولكن ماذا يقول؟! هل يخبره، أنه رأى آسية؟! هل يقول: إنه حاول أن يضمَّها ويقبِّلها؟! عدل عن هذه الفكرة المستحيلة. قرر أن يطلب من نافع أن يقرأ عليه بعد صلاة الفجر، لن يتأخر نافع عن مساعدته، ولكنه سيكون مثار شماتته، فكثيراً ما عارض هذه الممارسات، واتهم نافع بأنه يرتزق من الأوهام التي يبيعها للناس، في جالونات الماء والزيت والعسل، ويُسمِّيه تاجر جوالين الأوهام. ويتّهمه بأنه يعمم حالة الشك بين الناس، وأن ما يفعله لا يختلف كثيراً عما كان يفعله مشعان، ولكن بعد أن ألبسه لباس الدين. ندم عمر على اندفاعه في معارضته لنافع، فها هو الآن يحتاج إلى أن يرقيه ويشعر بكثيرٍ من الحرج. الخوف من شماتته، يلوم نفسه على اتهامه لنافع بهذه التهم، فقد جرَّب تأثير قراءة المطوِّع فيه، والراحة التي غمرته وهو ينام على تمتماته، وحركة شفتيه، ويده الباردة تتحرك بهدوءٍ على صدره وجبينه.

لم يكن عمر يرتاح لِلَكْنَةِ العامل الهندي عندما يؤذن، لأنَّه يُحرِّف الأذان عن معناه، بخلاف الأستاذ مصطفى عندما يؤذن بصوته العذب، ومع ذلك فقد أنِسَ بصوت المؤذن ولم يشعر بأن لكنته رديئة إلى الحدِّ الذي كان يقدره من قبل. خَفَّ إلى المسجد، وهو يشعر برغبة جامحة في الصلاة، واستماع القرآن. سيحكي الحلم لنافع دون ذكر اسم آسية، وسيطلب منه القراءة عليه، مهما بلغت درجة هزيمته أمام نافع.

عندما فرغ عمر من صلاة الفجر كان أبوه إلى يساره، تناول يده وقبَّلها وشعر براحةٍ وسكينةٍ تغمره. قرَّر ألا يسأل نافع تفسير حلمه، ولا القراءة عليه. قطع على نفسه أن يخفف من حدَّةِ معارضته لنافع، فسيحتاج إليه في المستقبل لا محالة، ولم يجنِ من معارضته شيئاً يُذكر، فلمَ لا يُبقيه صديقاً؟! يعرف عمر أن محاولة الحفاظ على صداقة جمال ونافع، كمحاولة الجمع بين الماء والنار في إناءٍ واحد؛ فجمال ينبز نافع بالرجعي، والأصولي، والمتطرف، ونافع يصف جمال، بالليبرالي، والشيوعي، والعلماني، وبينهما عمر الذي لا يُحبُّ أن يخسر أحدهما، وكلٌّ منهما يُعيِّرُه بصداقة الآخر، ويتهمه بالرضوخ لوصايته، حتى أصبح ككرة يتقاذفها الاثنان. تبدَّد رضاه عن جمال وعن نافع، وبقي سعيد مثالاً نادراً في نظر عمر، بشخصيته الهادئة المستقلة، المتصالحة مع الدين والناس والحياة.

(39)

بينما عمر يشرح لطلابه درس الأدب، طلبه نافع في الإدارة، بعد الحصة اتجهَ إلى مكتب المدير، وجد هناك ثلاثة من زملائه المعلمين. رحَّبَ به نافع، بحفاوة، وقدَّم له ظرفاً منتفخاً، معونةً من زملائه في المدرسة بمناسبة زواجه. شكرهم عمر وأثنى على موقفهم النبيل، فقد كان يحتاج هذا المبلغ أياً كان. عقَّبَ نافع على شكره باقتراح، أن يستضيفوا الشيخ علوان العامري، ليقدِّم محاضرة في زواج عمر، فزواجه سيكون كبيراً، وسيحضره أهل السورجة، وغيرهم، من أصدقاء عمر ونافع ومعارفهم، ومعارف أسرة آل الأهدل. واستعد نافع بزيارة الشيخ في مسجده ودعوته باسم عمر وأهل السورجة. يستمع عمر لنافع ورفاقه وهم يتحدثون عن هذا الشرف العظيم لعمر وأهل السورجة بحضور الشيخ علوان، والبركة التي ستحل على زواجه، بإذن الله تعالى، وهو يُفَكِّرُ كيف يرد عليهم؟ فهو يرغب لزواجه أن يكون شبيهاً بزواج تركية الأهدل، ولا يستطيع مواجهتهم بالرفض، فلايزال الظرف الذي قدموه له باسم زملائه في المدرسة بيده، ثم هو قد اتخذ موقفاً مسايراً لنافع، منذ احتاج إليه للقراءة عليه وتفسير

رؤياه عن آسية. في دوامة الحيرة هذه قال عمر: سيكونٍ زواجي بعد نهاية الاختبارات أي بعد شهر من الآن، وسأرتب بعض المسائل المتعلقة بحفل الزواج، وأرد عليكم.

– قال نافع: لا تتأخر، فالشيخ جدوله مزدحم ولا بُدَّ من التنسيق المبكر معه.

– خلال أسبوع سيكون جوابي لديكم بإذن الله.

توصَّل عمر بعد تفكير طويل إلى أن تكون محاضرة الشيخ للحاضرين بين المغرب والعشاء، ثم تنتهي المحاضرة فيصلي الناس العشاء، ويتناولون وليمة العرس، ثم يبدأ حفل العرضة تُقَدِّمه فرقة شباب السورجة الذين مازالوا يحافظون على تقاليد العرضة. لم يعجب نافع وزملاءه هذا الحل؛ إذ كيف تختتم محاضرة الشيخ علوان بالطرب والعبث والرقص وإطلاق النار؟!.

وبعد مفاوضات تَدَخَّلَ فيها أبو عمر، وخلف بن غرامة، وسالم المهدي توصلوا إلى أن يكون الزواج، بلا طرب، ولا محاضرة، حلاً للنزاع، وإرضاءً للطرفين، فنافع وسالم المهدي يصران على قدوم الشيخ علوان، ويرفضان الطرب وما يتبعه من مخالفات ورقص وإطلاق للنار، بينما عمر وخلف بن غرامة، يصران على استغلال هذه المناسبة لإعادة الفرح إلى السورجة، قال عمر لسالم المهدي:

– كلُّ ما أريده أن يكون حفل زواجي شبيهاً بحفل زواجك بتركية الأهدل رحمها الله.

– فردَّ سالم المهدي: كان ذلك أيام الجهل أما الآن فقد تنوَّر الناس، وعرفوا الحلال من الحرام، بجهود الشيخ نافع.

ومضى حفلُ الزواج هادئاً وديعاً، ولكن نافع وسالم المهدي قد حققا نجاحاً جزئياً، حين حضر الشيخ علوان من خلال مئات الأشرطة التي وزِّعَتْ هدايا للرجال والنساء.

في تلك الليلة خرج عمر من دوامة الخلاف هذه إلى المدينة، ليقضي إجازة الصيف في الشقة التي استأجرها له سعيد فترة الصيف، هديةً له بمناسبة زواجه.

(40)

قضى عمر في المدينة شهرين ممتعين، برفقة زوجته زهرة الأهدل، تجوَّل خلالها في المدينة، وسار بها في كلِّ الشوارع التي يتذكَّر أنه سلكها، خلال السنوات السبع التي قضاها في المدينة. يعتاده الحنين إلى السورجة وجبل حالية، بين الحين والحين. كُلُّ شيءٍ يجده في المدينة يتصور إمكانية وجوده في السورجة، يقارن بين تفاصيل المدينة والسورجة، فيجد عيوب المدينة قد سكنت في زوايا السورجة. أصبحت السورجة مسخاً للمدينة، تعيش بأخلاقها، وتفتقر إلى حسناتها. هنا في المدينة الكبيرة شعر عمر بأنه يمكن أن يعيش بسلام، ولكن هل يمكن الحكم على المدينة من خلال شهرين أحدهما شهر العسل، والآخر قضاه في متابعة أخبار الحرب الأهلية بين اليمنين الشمالي والجنوبي التي انتهت بيمنٍ واحد. ليست التجربة كافية ليتخذ قراره بالإقامة في المدينة. فإذا اتخذَ القرار فلا يكلِّفه ذلك سوى تمديد عقد إيجار الشقة التي يقيم فيها، وطلب نقل عمله إلى إحدى مدارس المدينة، ورحلة إلى السورجة لينقل مكتبته وبعض أشيائه، ويسلِّم والده مفاتيح بيته في السورجة.

عندما عرض الفكرة على زهرة، رحَّبت بذلك مع شعورها بالحنين لأهلها، ولكنها ستعتادهم بالزيارة، وسيأتونها في المدينة، سألته عن عمله في مدرسة السورجة، وعن بيته هناك.

– انتقال عملي إلى المدينة ميسور، وبالنسبة إلى البيت فسنقضي فيه الإجازات.

– ولكننا لا نعرف أحداً في المدينة سوى أسرة عمك أبو جمال.

– هذه أفضل ميزات المدينة، العزلة، والبعد عن فضول السورجيين.

عندما أخبر جمال بعزمه على الانتقال إلى المدينة، قال: حذار يا عمر أن تنسحب من معركتك في السورجة، وتخرج مهزوماً، فاراً تاركاً لنافع وسالم المهدي الميدان، أنت صاحب رسالة تنويرية، يجب ألا تتخلى عنها، وتترك الميدان للظلاميين والرجعيين.

– يا أخي لا أنا صاحب رسالة، ولا شيء، كلُّ ما أريده، أن أعيش بسلام.

– أي سلامٍ تعتقد أنك ستجده في المدينة، لا تظن أن المدينة هذه الشقة التي تسكنها، ولا تعرف داخلها إلا زوجتك، وكتبك ومجلاتك. المدينة يا عمر، ستتدخل في تفاصيل حياتك، ستدخل في خلايا جسدك، في نمط تفكيرك. المدينة معركة كبيرة، لضخامتها لا تشعر بأنك تخوضها، وأنتَ متورِّطٌ فيها حتى أذنيك. إن المعارك التي ستخوضها في السورجة، تسلية لتزجية

الوقت، بينما في المدينة، ستحتاج إلى وقت وعمر إضافيين لتفهم أطراف المعركة التي تعيشها.

– في المدينة سأغلق عليَّ بابي، ولن أتورَّط في أي معركة.

– لأنك سورجيٌّ بسيط تعتقد أن بوسعك ذلك، بينما الحقيقة أنك لن تستطيع، فلن تبقى وحدك طول العمر، سيأتيك أطفال يدخلونك معارك الدراسة، ومشاكل الحياة اليومية في المدينة، وسيصبح الهدوء الذي تعيشه الآن شيئاً من الذكريات.

– من قال لك أني سأنجب؟ أعرف أن عمري لن يطول، ولن أترك خلفي أطفالاً، يتحكَّم فيهم الآخرون، ويسخرونهم لنزعاتهم، لن أجني على أبرياء، لا ذنبَ لهم، أنا معرِّي الهوى كما تعرف.

– إذا كنت عاجزاً عن الإنجاب، فهذا قدرك، أما إذا كان قراراً اختيارياً، فالقرار ليس بيدك، إنه بيد بنت الأهدل التي ستملأ لك السورجة أطفالاً.

– حتى السورجة لم تعد مكاناً مناسباً لرعاية الأطفال، فقد أصبحت تحاول العيش في جلباب المدينة، في حين تفتقد لكل إيجابياتها.

– يا عمر أنتَ لم تفهم المدينة، هنا في المدُن الكبيرة، مقامُ الرذائل والشهوات، إن الذي يجري في عروق المدينة إنما هو دمٌ فاسد، فابصق على المدن الكبرى، لأنها مزبلة تتراكم فيها الأقذار، وارجع إلى السورجة.

(41)

تُلحُّ على عمر في مرقده صورة زوجته، وقلبها الطيب الغضوب، تغضبْ بسرعة، ثم ترضى دون أن تنتظر منه اعتذاراً، ترضى لمجرد أن يضاحكها أو يُقبِّلها، أو يحكي لها حكاية، أو نكتة. يتساءل عمر: «هل تبكيني الآن؟ أم تفكرُ في مستقبلها؟ كَبَّلَتْ نفسها بأربعة أطفال، كنتُ أرجوها ألا تنجب. يموت مستريحاً من يموت وليس وراءه أطفالٌ يعتنقُ همَّ مستقبلهم. ننجبهم لنفاخر بهم، ونتسلى بهم، ولكي يخدمونا عند الكبر. نركض خلف الأطباء، ونتردد إلى أبواب العيادات، ونجري الكثير من الفحوصات والتحاليل، لكي يأتينا أطفال، نزجُّ بهم في خضم الحياة، ثم نتركهم وراءنا يواجهون مصيرهم، دون أن نستطيع مساعدتهم على عبور مضيق الحياة. نحنُ عاجزونَ عن مساعدةِ أنفسنا، فضلاً عن مساعدتهم». حاول كثيراً إقناعها بألا تنجب، فهناك وسائل عدة لمنع الحمل.

– أنتَ تريد أن تحرمني من نعمة الأمومة.

– نضحي بنعمة الأبوَّة والأمومة لكيلا نجني على صغارنا،

ونلقي بهم في أتون حياةٍ لا ترحم.

– لن أضحي، ولن أحرم نفسي من الأطفال مهما كان الثمن، ثم تطلقني دون أن يكون لدي طفل يعوضني، عن أيامي الضائعة معك.

– ومن جاب سيرة الطلاق يا حبيبتي.

– لو كنت تنوي الاستمرار معي لحرصتَ على الإنجاب. الأطفال أقوى رابط بين الزوجين.

– ثقي بإخلاصي، فلن يمنعَ الأطفالُ مَنْ يرغب في فراق زوجته عن فراقها.

– لن أستطيع العيش وحيدةً طول حياتي.

– لا بأس ولكن تذكري دائماً أنك أنتِ التي جنيتِ عليهم، كلما شعرتِ بأنهم غير سعداء.

يشعرُ عمر بأن وراء إصرارها على الإنجاب ما يتردد على ألسنة النساء؛ «إن غلبك بالمال اغلبيه بالعيال»، لم يستطع أن يبوح لها بأنه يتوقع أن يفارقها رغماً عنه خلال سنوات، فهو يدرك ما تنبأ به (رودلف فيرشو) من أن أولئك الذين يعانون منذ الطفولة قصور الشعب الهوائية، سيلقون حتفهم في الثلاثينيات من أعمارهم.

لم تكن غبيةً ولكنها ككل النساء اللاتي يفكرنَ بهذه الطريقة، مهما بلغ تعليمهن، مهما بلغت منزلتهنَّ. ليس تفكيراً سيئاً

ولكنه لم يكن يناسبه. لم يكن تفكيرها يتقاطع مع تفكيره. تقرأ أكثرَ الكتب التي يقتنيها، تفهمها بشكل مختلف عما فهم، وتطبق نظرياتها بشكل عكسي. يزعجهُ أن تحتجَّ على مواقفها المخالفة بنفس الحجج التي يسوقها، فتقلب حججه عليه بشكلٍ يستفزه، ويشعره بأن عقله أصغر من عقل نملة. حاولَ أن يحبها كحبِّه آسية، يتصنَّع السعادة معها، وسرعان ما يكتشف أنه ممثل رديء لا يجيد تقمُّص دور الزوج السعيد. اختارها من بين ثلاث فتيات رشحتهنَّ له أمُّ جمال. اختارها عرفاناً بتلك القبلة التي منحته إياها عمتها تركية الأهدل عندما لقيته على البئر، كانت قبلةً تملؤها الأمومة التي لم يعرفها على الحقيقة، ولكنها حرَّكتْ فيه شعوراً باللذة والخجل، لم ينسها حتى بعد مضي ثلاثين سنة. هل الزواج بزهرة الأهدل جزاء يكافئ تلك القبلة؟ لو لم تقبل الزواج به لتزوجَ أي امرأةٍ أخرى تقبل به، لا فرق بين النساء عندما لا تتزوج من تحب. ولا فرق بين النساء عندما لا تكون آسية! يعتقد أن آسية مختلفة قبل الزواج وبعده، برغم القول الشائع: «لا فرقَ بين النساء بعد الزواج». كانت دميةً جميلةً، تصغره بنحو عشرين سنة، ولكنها سرعان ما تحولت إلى أمٍ لأربعة أطفال، تعيش معهم في صراعٍ دائم، وزوجةٍ لرجلٍ متقلبِ المزاج؛ لا يهتم بما يهتم به الناس. يجد في نقدها تسليةً. ولكنَّه ينغص عليها متعتها بالأشياء دون قصد. يلومُ نفسه كثيراً، ثم يعود إلى ذلك ثانيةً. يجد صعوبةً في الاعتذار منها، حتى عندما قرَّر مرة أن يعتذر لوَّثَ اعتذاره بالتبريراتِ التي انتهتْ بتحميلها مسؤولية خلافهما الذي دام أياماً.

في مرقده يلومُ عمرُ نفسَهُ: «كم كنتُ غبياً؟! فقد كان بوسعي أن أحيا معها حياةً هادئة ممتعة» حاولتْ كثيراً أن تُعيدَ ترتيبَ حياتهما، ولكنها عجزتْ أمام ضجره، وسآمته، وقلقه. يعتقد أنها ستكون أسعد بعد رحيله، تدير شؤون الصغار بهدوء. «لن تتزوج فقد أقسَمَتْ أني سأكون الرجل الأول والأخير في حياتها، كثيراً ما لعنت الأرامل اللائي تزوجن» كلُّ النساء يلعنَّ الأرامل حين يتزوجن. ربما تتعاطف الآن مع كلِّ الأرامل المحرومات من ظل الرجل، بعضهن تتزوج لتحمي نفسها من كلام الناس، وأخرى تحتاج إلى رجل يشرف على شؤون البيت والأطفال الذين عجزت عن رعايتهم بمفردها، وأخرى تتزوج لأن ظل الرجل أفضل من ظل الحائط. لا يدري عمر ما وجه المفاضلة بين الرجل والحائط؟! ربما لأنهما يتظاهران بالثبات والقوة وهما آيلان للسقوط لأدنى عارض! ربما لأن المطلوب منهما الصمود في وجه الأعاصير. إنهما يتشابهان من هذه الناحية، غير أن التصدعات التي تعتري الجدار تكون ظاهرةً فيمكن تلافيها وإصلاحها. أما الشروخ التي تُشوِّه نفسَ الرجل فإنها لا تُرى. ولا يعمل أحد على إصلاحها، حتى ينهار مرةً واحدة. هذا ما يعتقد عمر أنه وقع له تماماً، فالعذابات التي مرَّت به في حياته هي الدليل الوحيد على وجوده الإنساني، فالأمر بالنسبة إليه أنه طالما هو يتعذَّب فهو موجود، ولذلك فهو متأكد الآن أنه غير موجود؛ إذ لم يعد يشعر بأي معاناة، سوى الحرمان من وسادته الرمادية، وعجزه عن الاستلقاء على ظهره، وهذان أمران يمكن التعود عليهما.

(42)

في طريق عودته إلى السورجة أنَّبَ عمر نفسه لانسياقه خلف جمال الذي يُحبُّ أن يبدو مناضلاً ضدَّ الظلاميين. فقد أصرَّ على عمر أن يتمسك برأيهِ في إقامة حفل زواجه، بالطريقة التي يريدها، وألا يرضخ لوصاية نافع. يرى أن جمال قد أقحمه في معركة خاسرة خلقت له أعداء كان في غنى عن عداوتهم؛ فالسورجيون يُحَمِّلونه مسؤولية حرمانهم زيارة الشيخ علوان، وحرمان السورجة هذا الكسب. استعد عمر بدفع تكاليف دعوته لمحاضرة عامة في السورجة، تكفيراً لمعارضته لنافع وسالم المهدي التي ندم عليها، فضعفه أمام جمال سبب وقوعه في هذا المأزق. وخوفه من وصاية نافع أوقعه تحت وصاية جمال الذي سافر إلى مدينة الساحل الشرقي، وتركه يواجه نظرات السورجيين ووشاياتهم.

حرص عمر على عودة الود بينه وبين نافع، وقد نجح في ذلك إلى حدٍ كبير، برغم أن سالم المهدي لا يعجبه هذا الوئام، فقد أصبح عمر يقضي بعض الوقت بعد صلاة العصر، مع نافع

في مكتبه العقاري، ويكون حديثهما عن ذكريات الطفولة والدراسة، والمدينة، وتلك أشياء لا يقاسمهما فيها سالم المهدي.

استنكر سالم المهدي على نافع قبوله لهذه الصداقة، مع رجُلٍ يجمع الكثير من المنكرات، فغير أنه يحلق لحيته، ويسبل ثيابه، ويستمع الأغاني، فهو أول من جلب (الدُّش) إلى السورجة، وهو الذي رفض حضور الشيخ علوان. وغيَّر عرفاً سار منذ سنوات، بأن تكون مناسبة الزواج وسيلةً لنشر الخير والعلم والكلمة الطيبة. أكَّد له نافع أن عمر طيب القلب، وفي داخله خيرٌ كثير، فهو يعرفه منذ الطفولة، ولكن تأثير جمال فيه هو الذي ألقاه في هذه المنكرات، وعلينا استنقاذه مما هو فيه، ومن سيطرة أفكار جمال المنحرفة، وذلك ممكن، فعمر سهل القياد.

أصبح عمر مديناً لنافع، بعد وقوفه معه في مرض والده، وفي لحظات احتضاره، وبعد موته، فقد لقَّنه الشهادة، وعندما فاضت روحه، قرأ عليه سورة (يس) لأن الرسول صلى الله عليه وسلَّم قد أمر بقراءتها على الموتى. ثم تولى تغسيله وتكفينه، بينما عمر خائر القوى، يسترجع ذكريات أبيه ويتخيل المستقبل المخيف من دونه، ولا يدري كيف يتصرَّف عندما يطلبون منه استقبال والده في القبر، فهو لا يستطيع أن يقتحم القبر ويضجع والده على التراب، ثم يهيل عليه التراب كما فعل نافع بالمطوع. لا يدري كيف سينظر إليه أهل السورجة، وهو يبكي في المقبرة، ويمتنع عن نزول القبر؟ لم يتركه نافع يتعرَّض لهذا الموقف، فقد سبق إلى القبر بمجرد اقترابهم منه، ودعا (أبوجمال) للنزول بينما بقي عمر واقفاً ينظر، والدموع تهطل من عينيه، ولولا أن

أمسكه سعيد، فقد همَّ أن ينصرف، من المقبرة، قبل أن يفرغ الناس من دفن والده، ثم إن نافع الذي رفض منذ سنوات إقامة عزاء للمطوع، شارك (أبوجمال) وكبار السورجة أيام العزاء الثلاثة، في حين لم يحضر جمال العزاء، واكتفى بالاتصال بعمر والاعتذار. كان عمر يحتاج إلى جمال في هذا الوقت، فهو الذي يستطيع أن يبوح له بالهواجس التي تعتاده كلما غادر أحد السورجيين إلى جبل حالية. فكيف وهذا المغادر أبو عمر؟! الرجل الطيب الذي كان له أباً وأماً، في السورجة التي يعجزُ أكثر الرجال فيها عن القيام بدور الأب، فضلاً عن دور الأم. لم يستطع عمر البوح لأحد بأنه لا يرغب دفن والده بهذه الطريقة التي لا يراها تليق بمن كان ملء السمع والبصر، ثم لمَ يمنعون الناس عن تحديد حواف قبور موتاهم بالرخام، أو بأي شيءٍ آخر؟! ويُكتب عليها أسماء المدفونين فيها، وتواريخ وفاتهم؟! فقد قرأ أن النبي صلى الله عليه وسلَّم جعل حجراً عند قبر عثمان بن مظعون وقال: «أتَعَلَّم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي». ولكنه سكت عن البوح بهذه الأفكار التي تصطرع في رأسه، خوفاً أن يتهمه نافع وسالم المهدي بالدعوة إلى بدعة، ستؤدي إلى عبادة القبور من دون الله. كان يتألم وهو يذود الناس عن قبر المطوِّع، وقبر جدته حالية، وقبورٍ أخرى لا يعرف أصحابها، يذودهم عنها، ثم يعبرون من فوقها دون أن يأبهوا له.

غضِبَ عمر لغياب جمال عن عزاء والده، فهو متأكدٌ أن السبب تعاليه على أهل السورجة، وعاداتهم، فقد اتسم بذلك، منذ أصبح

اسمه معروفاً عبر الكتابة الصحفية، وله عمود في إحدى الصحف، يخوض عبره معارك مع مخالفيه الذين يزدادون يوماً بعد يوم. أصبح يتعالى على أصدقائه القدامى، بمن فيهم عمر. لم يبرر غيابَه اتصالُه بعمر وتعزيته. فقد كان عليه أن يحضر كما حضر أكثر شباب السورجة الذين جاؤوا من مدن مختلفة، برغم أن بعضهم لا تربطه صلة مباشرة بأسرة عمر. لم يخفِ عمر شعوره بالعتب على جمال وهو يتحدَّث مع سعيد، حاول سعيد الاعتذار بكثرة مشاغله. وأنه لا يقصد التهاون بعمه وعمر، ولكنها طبيعته التي تجعله يتعامل مع الأشياء بنوعٍ من التساهل وعدم الاكتراث. لم يكن رأي (أبوجمال) كذلك، فقد غضب على جمال، ورفض الرد على اتصاله.

(43)

مرات قليلة تمكَّن عمر خلالها من لقاء زوجة المطوِّع، منذ أن منعه نافع عن مقابلتها باعتباره ليس من محارمها. شعر بأنَّه يُحرم من لقاء أمِّه مرةً أخرى، فهو يُكنُّ لها محبةً استحقَّتها بحنوِّها عليه في طفولته، ورعايتها له وصلتها بآسية. عندما مات المطوِّع أصرَّ عمر على مقابلتها وتعزيتها. تدخَّل سعيد، وأقنع نافع بأنها من القواعد اللاتي ليس عليهن حرج في الحجاب. اقتنع نافع بذلك، ودهش وهو يرى عمر ينحني يقبِّل يدها، وينتحبْ، كأنما لقي أُمَّه التي فقدها في ليلة مولده. لاحظ عمر تغيراً على ملامحها، وخطوطاً متقاطعةً ومتوازيةً على وجهها الأصفر الشاحب من أثر السنين. ردَّتْ له التعزية يوم وفاة والده. ولقيها بنفس القدر من الحب والتقدير. لما رآها انهمرت الدموع من عينيه، وشعر برقةٍ متناهيةٍ وحزنٍ عميق. ليس موت والده باعثه الوحيد. فقد ذكَّرته بآسية والمطوِّع، والزمن الجميل.

كانت زوجة المطوِّع في زيارة لأسرة عمر، كان جالساً بجوار

داره يستمع لتقرير عما سُمي حمى الألفية، فعند الثانية عشرة من مساء ذلك اليوم سينتهي عام ١٩٩٩م، ويبدأ عام ٢٠٠٠م، وقد شاع أنه ستختل في هذه اللحظة برمجة أجهزة الكمبيوتر، بسبب (الصفر) الذي لم تكن الأجهزة مهيأة له، وأنه بسبب ذلك سوف تتعطل برمجة محطات الكهرباء، والمفاعلات النووية، وربما انطلقت الصواريخ الموجَّهة، على غير هدى، ولذلك فقد قرر كثيرٌ من سكان المدن الصناعية الكبيرة أن يقضوا تلك الليلة في الغابات، مكتفين بالخيام والشموع، لتفادي الخطر المتوقَّع. كان أطفاله محمد وحسن وسعيد، يلعبونَ حوله. ألحَّ عليها أن تجلس وتشرب معه فنجان شاي، قبل أن تدخل إلى النساء اللاتي سبقنها إلى الداخل. عرَّفها بأسماء الصغار، فقالت وهي تشير إليهم: محمَّد على اسم والدك، وسعيد على اسم ابن عمك، ولكن حسن، على اسم مَن؟!

– على اسم حسن الذيب الذي ذهب ضحية الحب، هل تذكرينه يا عمَّة؟!

– حسبه الله على من تسبب له.

– تقصدين سالم المهدي؟!

– سالم المهدي ومشعان.

– مشعان أفضى إلى ما قدَّم، أما سالم المهدي فقد تاب واهتدى.

– سالم المهدي يتبع مصلحته، ومصلحته الآن مع نافع،

ونافع لا يدري عن أفعال سالم المهدي مع المطوع وآسية.

– وماذا فعل سالم المهدي مع المطوِّع وآسية؟!

– انتهى كُلُّ شيء يا ولدي ما فيه داعي للكلام.

– أرجوكِ قولي لي يا عمَّة.

– هذا سرّ ما يعرفه أحد غيري، وسيموت معي.

– أسألكِ بالله العظيم أن تخبريني يا عمَّة. فهو يخص آسية، وأُقسم ما يعلم به أحد.

تصبب عرق عمر وهو يسمعُ حكاية خطبة سالم المهدي ومشعان لآسية، وتهديده للمطوِّع، وانتحار آسية. دمعتْ عيناه، وهي تقسم عليه ألاَّ يُخبر أحداً، فلا أحد يعرف ذلك سواها. قالت وهو يرافقها إلى باب البيت: يا عمر ما فات فات، والماضي لا يعود يا ولدي. ودّعها وعاد قبل أن تلمحه زهرة وهي تستقبل زوجة المطوِّع.

(44)

تفاجأت زهرة بمنظر عمر عند دخوله البيت بعد صلاة المغرب، توقَّعت أن مكروهاً حلَّ به، حاولت أن تجد سبباً لدموعه، والشحوب الذي يجلِّل وجهه، وانطوائه في زاوية للصالة. حاولت أن تعرف ما به، ولكنها عجزت، توقعت أن تكون عاودته حالة الكآبة. بعد أن نهرها لم تكرِّر السؤال، ولكنها تتعهده دون أن يشعر بها. كان مستلقياً على سريره، وعيناه الدامعتان شاخصتان في المروحة التي تدور ببطء.

في ساعةٍ متأخرة من الليل، اتصلت زهرة الأهدل بأمها باكيةً، تشكو لها حالة عمر، فهو يهذي، وتحاول إيقاظه فلا يفيق، والعرق يتصبب من جسده. حاول أبو زهرة إيقاظه، دون فائدة، رشَّه بالماء البارد، وهو يردد آسية.. آسية.. آسية.. تعالي يا آسية.. لا تخافي يا آسية، سأحميكِ من سالم المهدي، لا تخافي يا آسية مشعان قد مات، يا آسية..آسية.. آسية.. ثم هدأ قليلاً. اقترحت أُم زهرة أن يأتي نافع للقراءة عليه، ولكن زهرة ذكَّرتها بأنه قد امتنع عن القراءة، حيثُ كان ذلك شرط زوجته الثالثة، للقبول به، ولكن أبو زهرة اصرَّ على استدعائه، فلا عذر

له في هذا الظرف. يقرأ نافع بصوتٍ هادئ يرتفع قليلاً قليلاً، بينما عمر يحرك عينيه، ينظر إلى نافع، تتراءى له صورة المطوع في وجه نافع، يجهش بالبكاء، يستمر نافع في القراءة، ويستمر بكاء عمر، يؤذن لصلاة الفجر، يحاول نافع إيقاظ عمر للصلاة، ولكنه يعجز عن القيام، فيستأذن ليصلي بالناس. رجع نافع من المسجد ليجد عمر جالساً في سريره، وقد ثنى ركبتيه إلى صدره، حاول أن يكلمه، أن يسأله عما يحسُّ به، ولكنه لم يتكلم، ولم يرد على إشاراتهم، يتساءل أبو زهرة عن تفسير نافع لهذه الحالة، فقال نافع: هذا أثر عينٍ حاسدة، والعياذ بالله. لما سمعته زهرة وكانت مع أمِّها خلف الباب، قالت: زوجة المطوِّع زارتنا أمس، وجلستْ مع عمر، حسبنا الله عليها، من بعدها وحال عمر متغير، بكرة سأحضرها لتغسل وجهها على عمر.

استمر عمر أياماً لا يتكلَّم، ولا يقبل الطعام، عندما علم سعيد بحالته، جاء فوراً إلى السورجة، وأخذه مع زوجته وأطفاله إلى بيته في المدينة. لم يكن يشكو ألماً عضوياً، أخذوه إلى عدد من الرقاة بالقرآن. تذكَّر أبوجمال بحثه المضني عمَّن يرقي عمر عندما تأثر لموت جدته حالية، وهو يرى أئمة المساجد اليوم يرقون المرضى، ويقدِّمون لهم زيت الزيتون والماء المقروء عليه، بثمنٍ يسير. بعضهم لديه عمارات وشقق خاصة، عليها لافتات مكتوب عليها اسم الشيخ، ومواعيد استقبال المرضى، والقراءة. يتنقلون من قارئ إلى آخر دون جدوى. يشعر عمر بشيءٍ من الارتياح أثناء الرقية، ثم يغيب أثرها بمجرد مغادرته. اقترح عليه أحدهم أن يعرضه على طبيب نفسي، ودلَّهُ

على المستشفى الذي به عيادة نفسية، وأكَّد له أن بعض الحالات لا يكون علاجها بالرقية، وإنما بالعقاقير.

دخل سعيد برفقة عمر، وجد الطبيب في نحو الخمسين، طويلاً نحيفاً، له عينان زرقاوان، غائرتان. بعد استكمال بيانات الملف الذي بين يديه، سأل الطبيب سعيد بعض الأسئلة عن عمر، وأسرته، وعمله، وصلة القرابة بينهما. ثم طلب منه الخروج من العيادة. بعد أن سجَّل تلك المعلومات في ملفٍ بين يديه..

– الآن يا عمر احنا لوحدنا، قول لي حاسس بإيه.

–....

– طيب أنا أقول لك حاسس بإيه لو صحَّ تقول: آه، لو غلط تقول: لا.

– هزَّ عمر رأسه بالموافقة.

– أنت حزين أوي؟

– هزَّ رأسه بالموافقة.

– وصدرك مليان خوف وقلق، مش عارف ليه؟

– هزَّ عمر رأسه بالموافقة.

– وتشعر إن الدنيا دي ما تساويش حاجه؟

– هزَّ رأسه بالموافقة.

– وإنك أنت كمان ما تساويش حاجه؟

– هزَّ عمر رأسه بالموافقة.

– ومش عايز تكلِّم حد؟ وما فيش فايدة من حدٍّ؟

– تماماً يا دكتور.

– حتى أنا حاسس إني كداب ومش حساعدك؟

– أبداً يا دكتور أنتَ أملي الأخير.

– طيب عشان أساعدك لازم تقول لي إيه اللي وصَّلك للحالة دي؟

– ولكني حلفت يمين ما أقول لأحد!

– يا عمر أنا مش حد، أنا طبيب، يعني أنت تقول ولا كأنك قلت، اللي حلَّفك يقصد ناس محددين. بس ما يهموّش إني أعرف أو ما اعرفش، لأني طبيب، وما ليش علاقة في الخصوصيات.

– بدأ عمر الكلام، وأرخى له الطبيب ظهر الكرسي حتى صار مستلقياً، بينما عمر يقص له حكايته منذ عرف آسية، حتى أخبرته زوجة المطوع، بخبر انتحارها.

– إنت هايل يا عمر، لأنك تقدِّر اللي ضحَّت بحياتها عشانك، وتكتئب عشانها، وكمان أنت محظوظ إنك لقيت بنت تحبك وتضحي بحياتها من أجلك، أنت تستاهل تضحيتها، وهيه تستاهل إنك تكتئب عشانها. إنت رجل عظيم، وآسية بنت

عظيمة، وموقفها مشرِّف، وردة فعلك إنت مشرفة كمان. أنت وآسية فخر للإنسانية، المشاعر النبيلة والعظيمة دي معادتش موجودة اليومين دول. تصدِّق يا عمر؟! كان متهيأ لي إن الحكايات دي مش موجودة إلا في كتب الأدب، والروايات الخيالية، أتاري لِسَّهْ في ناس بتحب بصدق وإخلاص. يا عمر كُل الناس اللي إنت شايفهم غلط، وإنت وآسية الصَّح؛ لو ما كانتش ردة فعلك بهذا العنف والقسوة على نفسك ما كنتش تستاهل تضحية آسية. وفيه حاجة قبل ما أنسى لازم أنبِّهك ليها. إنت عندك موهبة في الحكي ما حصلتش، ولغتك لذيذة أوي، لازم تكتب يا عمر، لازم تفرغ اللي جواك في الورق، إنت مش مريض، إنت إنسان، ومش إنسان عادي، إنتَ إنسان نادر، ونقي من الداخل، عشان كده، أقدر أقول لك مع السلامة من غير دوا، بس برضه، حكتب لك فيتامينات، ومكملات غذائية، عشان الفترة اللي ما كلتش فيها، ومهدئات ترجَّع توازن إفرازات الحزن والقلق، اللي زادت عندك بسبب إنسانيتك وحساسيتك، وضروري أشوفك بعد أسبوع يا رجل يا عظيم.

تحسَّن عمر بشكلٍ ملحوظٍ، وعندما عاد إلى الطبيب بعد أسبوع كان ممتناً له. ووعده بزيارات غير مرضيِّة. رحَّب الطبيب بصداقته. صار لا يأتي المدينة إلا زار عيادته، حتى في الأوقات التي لا يحتاج فيها إلى مزيد من الدواء المهدئ الذي لا يُصرف إلا بوصفة خاصة من الطبيب النفسي.

(45)

عندما رأى عمر طائرتي الركاب تصطدمان ببرجي التجارة العالمية، شعر بذهول، تحولَ إلى رُعبٍ يهزُّ مفاصله. يتابع المشاهد تتكرر، ولا يُسلِّم بأيٍ من التحليلات التي كانت تُلقي بالافتراضات جزافاً. يدرك جيداً أن العالم بعد هذا الحدث، سيكون مختلفاً عن العالم قبله. يتساءل عن العالم الجديد كيف سيكون؟! وانحصر تفكيره في أطفاله. هجس بمستقبلهم، وندم على توريطهم في هذا العالم الجديد، أياً كان وراء ما حدث، فمن الصعب استيعابه، ولا التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر أطفاله. لكيلا يتمادى في هذه الأفكار ابتلع حبةً من المهدئ الذي وصفه طبيبه النفسي. شريطُ الحبوب المهدئة لا يفارقه، فقد يُسيطر عليه الشعور بالخوف والقلق لأي عارض. وربما من دون عارض، لم تَحُلْ الحبَّةُ التي ابتلعها بينه وبين التفكير في مستقبل صغاره، محمد ذي السنوات السبع الذي حرص على دخوله المدرسة عند السادسة تماماً، برغم معارضة زوجته، فهي تراه صغيراً ولا يحتمل مشقة الدراسة. حدثها عن جناية جدته فضَّة التي أخَّرَتْهُ عن الدراسة ثلاث سنين بحجة مشابهة.

وحسن ذي الخمس. وسعيد ذي الثلاث، وآسية ذات السنتين، لم يكن ليعترض على مجيء بنت أخرى لتؤنس آسية، وكان ينوي تسميتها تركية، ولكن ذلك لم يحدث.

أعادت أحداث الحادي عشر من سبتمبر هواجس المستقبل، إلى مركز متقدِّم ضمن مخاوف عمر. تقدَّمت حتى على الموت الذي عاش يهجس به منذ شاهد حسن الذيب المسجى في غرفة الموت الكئيبة. أصبح مستقبل الصغار ذعراً حقيقياً، يقاومه بابتلاع المهدئات كُلَّ مساء، وربما قام من فراشه ليلاً وابتلع حبّةً إضافيةً. تعتقد زوجته أن هذه الحبوب هي التي تجعله واهنَ القوى، وربما تكون هي التي حرمتها من إنجاب الطفلة التي تتمناها.

– العالم يغلي يا زهرة.

– هل تستطيع بقلقك هذا أن توقف غليانه.

– لا أستطيع أن أضمن مستقبلاً هادئاً لأولادنا، لتطلبي مني تَهدئة العالم.

– كُلُّ شيء بيد الله، توكَّل على الله، ولا تحمِّل نفسك ما لا طاقة لك به.

– لو سمعتِ كلامي يا زهرة ولم نورِّط هؤلاء الأبرياء في معركة الحياة الخاسرة.

– حرام عليك! أولادي عندي بالدنيا، ولا عالمك اللي يغلي كلُّه يساوي عندي ظفر واحد منهم.

– قلقي عليهم نابع من حبي الشديد لهم.

– أرجوك توكَّل على الله، ولا تقلقني معك.

يحسدُ عمر كُلَّ الذين ماتوا قبل الحادي عشر من سبتمبر؛ يشعر بأنهم ارتاحوا من قلق القرن الحادي والعشرين الذي تشير بدايته إلى أنه لن يكون محرقةً للبشرية فحسب، بل وللقيم والأخلاق، وبقايا الأشياء الجميلة التي لم يستطع قرن العشرين، الإتيان عليها.

نظر عمر السورجي إلى سقوط برجي التجارة على أنه إيذانٌ بنهاية العالم، وبدأ يضع سيناريوهات لهذه النهاية. ويتخيل كيف ستقفر الأرض بعد رحيل آخر كائن بشري من عليها؟! كيف سيكونُ حالُ الأرضِ في الأيام التالية لرحيل الجنس البشري، وانهيار الحضارة الإنسانية التي لن يبقى لها أثر خلال ألف سنة؟ ستلتئم كل الجراح التي خلَّفها الإنسان على سطح الأرض، وتسود من جديد مملكة النبات التي ستخرج من كل الشقوق والفجوات التي تصل إليها الشمس، بعد أول شتاء من رحيل الإنسان. ستصبح كل المباني والأبراج ومظاهر التمدُّن مراتع للوحوش التي ستقترب من مراكز المدن شيئاً فشيئاً. ولن يتضرر لرحيل الإنسان إلا الحيوانات الأليفة التي أفسد الإنسان فطرتها، فأصبحت تعتمد عليه في المأوى والمأكل والمشرب، أو تلك التي يحبسها في الأقفاص، وفي أحواض الزينة.

يتصور السورجة بعد رحيل السورجيين، حيث هجرها أكثرهم إلى المدن القريبة بحثاً عن وسائل الرفاهية والدَّعَة،

والمعاهد والجامعات، لأبنائهم وبناتهم، وحيثُ تتوفر الخدمات الصحية، وفرص العمل، بعد أن حولوا أكثر مزارعها إلى مبانٍ أسمنتية. يتخيل هذه المباني الأسمنتية وقد برزت الشجيرات من نوافذها، وأحاطت بجدرانها، كما حدث لبيوت السورجة القديمة، بما في ذلك بيت جده عمر الذي هجره أبوه بعد أن بنى له عمر بيتاً في إحدى مزارعه. هكذا فعل أكثر السورجيين، حين أصبح أبناؤهم موظفين، يزدرون البيوت القديمة، فآلت ملكيةُ مزارعهم لسالم المهدي؛ يبيعهم مؤن البناء من مؤسسته بالتقسيط بأثمانٍ مضاعفة. عندما يعجزون عن تسديد ما عليهم من ديون في الوقت المحدَّد، يختار من مزارعهم، مقابل التنازل عن الديون التي عجزوا عن سدادها. بمضي الوقت لم يعد يقبل مزيداً من المزارع، فقد أصبح عنده من المزارع ما لا ينتفع به، ثم إن أكثر الذين باعوه مزارعهم، غادروا السورجة إلى المدينة. توشك السورجة أن تُصبح مقفرةً من أهلها، ما يؤذن بإغلاق مدرسة السورجة، بعد تضاؤل عدد طلابها. اهتم عمر لهجرة الناس، فقد تزعزع بذلك شعوره بالأمان في السورجة، وهو يرى الناس يغادرونها إلى المدينة ولا يعودون. المدينة التي حذَّره منها جمال، ووصفها بأبشع الأوصاف. يتمنى لو يأتي جمال ليردَّ الناس عن المدينة إلى السورجة، كما فعلَ عندما قرَّر عمر العيش في المدينة بعد زواجه. لا يستطيع عمر أن يقول لأهل السورجة: « في المدُنِ الكبيرة، مقامُ الرذائل والشهوات، إن الذي يجري في عروق المدينة إنما هو دمٌ فاسد، فابصق على المدن الكبرى، لأنها مزبلة تتراكم فيها الأقذار». عندما قال له جمال ذلك قرر العودة إلى السورجة، مباشرةً.

ولكن أهل السورجة الذين هجروها، أو ينوون مغادرتها لن يستمعوا لجمال، فهم لا يثقون به ولا يصدقونه. فهو في نظرهم رجلٌ منحرف الفكر والسلوك، يعاقر المسكرات، ولا يؤدي الصلوات.

تيقن عمر أن جيله سيكون الجيل الأخير الذي يشهد السورجة مرتديةً ثوبها القديم الذي لبسته منذ مئات السنين، ويشهدها وهي تخلعه أو يُخلعُ عنها، بعد أن حافظتْ عليه قروناً طويلة، تبدو له السورجة عاريةً قميئةً.

يشترك سالم المهدي ونافع وعمر في الشعور بالقلق تجاه هجرة أهل السورجة إلى المدينة، وإن اختلفت الأسباب، فمنشأ قلق نافع، أنه لا يستطيع العيش وحده في السورجة مع العاجزين عن الانتقال إلى المدينة. ولا يستطيع مغادرة السورجة لارتباطه فيها بمصالح تجارية كثيرة، وارتباطه بإمامة المسجد، وإدارة مدرسة السورجة. تهدد هذه الهجرة مصالح سالم المهدي الذي أقام بناءً خاصاً بالمدرسة يتقاضى عليه أجرة سنويةً مجزية، ويعمل بوظيفة حارس ليلي للمدرسة. التزم سالم المهدي لنافع عدم شراء أي مزرعة، من أهل السورجة، لأن كثيراً منهم يبيع مزارعه ويبني بثمنها أو يستأجر في المدينة. أصبح ذلك يشكل خطراً حقيقياً على مدرسة السورجة، وتجارة نافع وسالم المهدي.

(46)

في أبريل ٢٠٠٣م سقطت بغداد في أيدي الأمريكيين. لم يأبه عمر السورجي لسقوطها، فلم يعد يشغله شيء سوى النهايات التي يتوقعها لأولاده. ربما تموت آسية وهي تلد، كما حدث لأمه، ولتركية الأهدل. في بعض الأحيان، يغتال المولودُ أمَّه احتجاجاً على ولادته، كما فعل عمر. ينظر للدبابة الأمريكية تدخل حديقة الفردوس في بغداد لأول مرة في التاريخ، لتساعد العراقيين على إسقاط تمثال صدام، يقول المذيع: «لم يعجز العراقيون عن إسقاط صدام بأنفسهم فحسب، بل وعجزوا أيضاً عن مجرد إسقاط تمثاله، إلا بمعونة الأمريكيين». يستمع عمر للمذيع يغطي سقوط بغداد من فندق الرشيد، بينما يمسك بيد بنته آسية، يعلمها كتابة اسمها، حاولت كتابة اسمها بمفردها فكتبت (أسيا). أعاده هذا الخطأ الإملائي إلى تجربته الأولى في كتابة الاسم نفسه، وبالإملاء نفسه، حين طلبت منه آسية أن يكتب اسمها، فكتبه (أسيا) يعود إلى زهوه بكتابة اسمها، ثم يعتريه الشعور بالخجل عندما دخلت المدرسة وعرفت أنه كتبه خطأ، ثم يتحول خجلهُ حزناً مريراً على آسية. يتذكَّر كتاب

الهجاء الذي أكلته بقرة المطوِّع؛ يحذر ولديه محمد وحسن، من أن تأكل البقرةُ كتبهم، مع أنه لم يعد هناك بقر في السورجة. أصبح الناس يأنفون من تربية المواشي، ويعتمدون على الحليب المبستر. لو حدث ذلك لكتاب أحد ولديه فلن يضربه على وجهه، ولن يشبهه بالبقرة. بل سيُقَبِّلُهُ ويذهب معه من الغد ليستبدل بكتابه المأكول كتاباً جديداً.

ربما تموت آسية الحبيبة صغيرةً. لو حدث ذلك فسيقتل نفسه بطريقة تضمن له نهاية حقيقية. فهو يعتقد أنه يركض بعد خط النهاية. لم يكن يتوقع أن يبلغ الأربعين، وهاهو الآن يزيد عليها سبع سنوات، ليست المرة الأولى التي يفكر فيها بالانتحار، لقد فكَّر فيه جدياً بعد موت آسية، ولكنه عجز عن فعل ذلك. عندما يبتلع حبة المهدئ ينتابه شعور بالتفاؤل، ولكنه لا يلبث أن يتبدَّد عندما يتذكر أن الموت سيسحق هذه البراءة التي تكسو وجوه أولاده.

لا يعرف أي قلبٍ للموت الذي لا يتردد عن التقاط أرواح الصغار المقبلين على الحياة!! يبدو له أن الموت يجد متعةً كبيرة، كلما وجه طعنات قاتلة ومباغتةً، يا للغدر.

يُحدِّث زوجته بمخاوفه، فتحاول إقناعه بأنها هواجس لا تتصل بالواقع. عندما تعيد التفكير في تلك الأفكار بمفردها، ينتابها شعور بإمكانية حدوث الأشياء التي يتوجَّس منها عمر. بإلحاحه وتكراره لهذه الأفكار تسربت إلى نفسها. تولَّدت لديها مخاوفُ جديدة، ربما لم يخطر بعضها ببال عمر. أمست تقاسمه

شريط الحبوب المهدئة، وزيارة طبيبه النفسي. تشابهت مخاوفهما، وتعاظم قلقهما.

لمَّا قرأ عمر عن ظاهرة أطفال الحروب، حيث تورّط المئات من الأطفال في النزاعات المسلّحة، زادت هواجسُهُ حول مستقبل أطفاله. يخشى أن يكونوا سلعةً يتاجر بهم النخاسون، أو يكونوا ترساً يتقي بهم الظالمون. أو يكونوا وقوداً لمعركة لا يعرفون لماذا يخوضونها. أو يكونوا سخرةً لأولئك الذين واتتهم الفرص فكانوا هم الوارثين. أو يكونوا زبائن عند الذين يعتقدون أنهم يملكون مفاتيح الفراديس، يمنحونها للغافلين الذين يخوضون حروباً باسم الإسلام، أول ضحاياها الأبرياء من المسلمين، وغير المسلمين، أولئك الغافلين الذين انقادوا لمن يُفسِّر الإسلام على أهوائهم، حتى انتهى بهم الأمر قنابل موقوتة في شوارع البلد الذي رعاهم منذ الطفولة. أو أحزمة ناسفة تحرق أهلهم، وبني جلدتهم، باسم الإسلام. ثم يتخلى المتبوعون عن التابعين. يخشى عمر أن يحمل أولاده وزراً كهذا في يومٍ من الأيام. صار يخاف عليهم صحبة المتدينين، كما يخاف عليهم صحبة الضالين، فمن يصحبون؟!!

يُعَذِّبُه أن يتخيل أولاده يحملون ملفاتٍ خضر، يتسولون وظيفةً ممن يتسلى بجمع الملفات وإعلان المسابقات، وانتظار المحرومين، وقد قرَّروا النتائج سلفاً ظانين أنهم يملكون تقدير الأقدار، وتقسيم الأرزاق، وتحديد الآجال، كان يدعو عقب صلاته دائماً: « اللهم لا تجعل أولادي فتنةً للظالمين، ولا أتباعاً للضالين، ولا عبرةً للمعتبرين، ولا سخرةً للجبارين، ولا تجعل

أرزاقهم في أيدي المخلوقين، يا ربَّ العالمين»

يعتقد عمر أن كثيراً من الناس دفنوا أحياء، دون التحقق من موتهم، فالمؤشرات التي يُعتمد عليها في تحديد حالة موت الإنسان ليست يقينية. لحظة الموت لم تُحسم ولم تُحدَّد علاماتها بدقَّة، وليس هناك تحديد شرعي قاطع للحظة الوفاة، والأطباء يعتمدون على ظاهرة نشاط الدماغ الكهربائي، عن طريق مخطط الدماغ الكهربائي، وكُلُّ هذه المؤشرات قابلة للخطأ.

يتخيل عمر حالة كثيرٍ من المحكوم عليهم بالموتِ خطأً، والكرب الذي يُحدق بهم عندما يستيقظون فيجدون أنفسهم في مكانٍ محكم غير الذي ألفوه. يتذكر عمر حكاية جدته حالية، عن المرأة التي أفاقت عندما سكبت النساء عليها الماء لتغسيلها، والرجال قد أوشكوا على الانتهاء من حفر قبرها، عندما جاءهم من يبلغهم بأن المرأة قد أفاقت. يتخيل تلك المرأة لو تأخرت إفاقتها حتى انصرف الناس عن قبرها. سايرت هذه الهواجس عمر، حتى تخيَّل كُلَّ الموتى الذين يعرفهم، وهم يستيقظون، ويصرخون، و ينادون أحبابهم ولا يسمع أحدٌ نداءهم. لم يستطع مقاومة هذه الفكرة المزعجة، وبقيت تُلحُّ عليه، بينما تمثال صدام حسين يهوي على الأرض، ويكتشف أنَّه غطاء معدني يقوم على ماسورتين فارغتين من الداخل.

(47)

يكاد عمر يجْزم الآن أنَّهم قد وضعوه في قبره قبل أن تفارق روحُه جسدَه. يفكِّر في ذلك بينما يعجز عن الاستلقاء على ظهره، لا بأس بتكرار المحاولة، لا تستجيبُ له أعضاؤه. يحرك عينيه، ولا يستطيع الجزم أنهما تتحركان. يتمنَّى لو أُتيحت له العودة إلى السورجة، ليودِّع أطفاله، وزوجته، ويطلب منهم أن يتأكدوا جيداً من موته، قبل أن يودعوه القبر، وأن يقرِّبوه من المطوِّع وآسية. لو أمكنه لعاد فرتَّبَ مرقده مكان مشعان؛ يخرج بقايا مشعان إلى حفرةٍ أخرى، فهو لا يستحق قربَ آسية التي كان سبباً في موتها، ولا قرب المطوِّع الذي قضى سنوات يلوِّعُه فراق آسية، والحزنُ على نهايتها، وحُرْقَةُ تأنيب الضمير. لو أتيحَتْ له إعادة التجربة ليعيش الحياة كما يريد لا كما يريدُ الآخرون. فقد عاشَ تجربةً واحدةً، بينما الأذكياء يغيرون مساراتهم في الحياة، ويجربون طرقاً عدَّة للحياة، مع أنهم يصرفون وقتاً في التجريب، لكنهم مع ذلك أوفرَ حظاً من عمر الذي ضيَّعَ عمره في تجربة فاشلة. نافع نجح في تجريب الحياة، وتقليبها على كُلِّ وجه، ليعيش تجارب مختلفة، وحيوات متعددة، عاش طفولةً

عادية، ثم تَدَيَّنَ وتتلمذ على المشايخ، ثم تزمَّتَ وتعصَّبَ، ثم أصبح شيخاً يوجِّه الناس ويخطب فيهم، ويأمرهم وينهاهم، ثم راقياً بالقرآن وبائعاً لزيت الزيتون (المقري عليه) ومفسراً للأحلام، ثم بائعاً للعسل، ثم متاجراً في المواد الغذائية، ثم مالكاً للعقارات والشقق السكنية، ومحطة البنزين، ثم عمدة للسورجة وزوجاً لثلاثِ نساء، وأباً لعدد كبير من الأولاد والبنات، ثم ها هو بعد هذا العمر يحفُّ لحيتَه المصبوغة بالسواد، ويُعفي شاربَه، ولايزال مديراً لمدرسة السورجة، يتأنَّق في ملبسه، ويتخلى عن كثيرٍ من الأفكار التي خاصم من أجلها، وفرضها على السورجة وأهلها. صار نافع شيخاً عصرياً، يترخَّص في كثيرٍ من القضايا التي لم يكن يقبل فيها خلافاً. في حين عاش عمر آخر سنوات حياته لا يختلف عن ميتٍ يمشي بين الأحياء، والآن يعتقد أنَّه حيٌّ يعيشُ بين الأموات.

فيما مضى كان عمر يأنف أن يعيش حياة نافع، والآن يندم على أنه لم يجربها، يراها حياةً ملوَّنةً زاهية. جمال أيضاً عاش حياةً ملوَّنة، وله علاقات كثيرة، ومعجبون وخصوم، جرب الزواج، ثم طلَّق زوجته، وعاش حراً، بعيداً عن قيود الأطفال والأسرة، يتنقَّل بين المدن والبلدان، ويتحدث عن المدن التي زارها. في آخر لقاء له حدثه عن باريس، ومطار بورجيه، ومحطة الانفاليد، وحي سان جرمان دي بريه، وحديقة اللاكسمبور. وحدثه عن نيويورك مدينة المتناقضات كما يُسميها، الثراء الفاحش، والفقر المدقع، ناطحات السحاب والأكواخ الحقيرة، عظمة التمدُّن، وأفظع الجرائم. في حين عاش

عُمر في السورجة، حياةً رماديةً، تُشبهُ مخدَّته التي يشتاق إليها الآن، ويتمنَّى لو يجدها تحت رأسه، ثم يقضي دهراً طويلاً أو قصيراً في مكانه هذا، لا يهم عندما يستلقي على ظهره، ومخدته الرمادية تحتضن رأسه، كما كان يفعل، في غرفة نومه ذات الستائر الكثيفة.

يشعر عمر بأنه قد فقد إرادته تماماً، فلم يعد يملك سوى ذاكرته التي تنزُّ بنسغ الذكريات، ولا يملك حيالها شيئاً، يتملَّكه شعورٌ رهيب بالعجز. وجد في الوقت متسعاً ليتأمل حياته فيكتشف أن عجزه عن امتلاك الإرادة، ليسَ جديداً، فأكثر القرارات أهميةً في حياته، اتخذها آخرون بإرادتهم، دون أن يكون له فيها رأي، وأولها ولادته، ورحيل أمه، حتى اسمه لم يكن له فيه رأي، فقد كان عمه يريد أن يسميه جمال، بينما أراد له أبوه أن يحمل اسم جده، وعاش يتيماً بغير إرادته، وإن كانوا في السورجة لا يعتبرون من فقد أُمَّه يتيماً، برغم أنَّه عاش يتماً حقيقياً، فقد عجز أبوه وجدته فضَّة عن تعويضه عن أُمِّه. وتأخر عن الوقت المحدد لدخول المدرسة بإرادة جدته فضة، ثم أدخل المدرسة بغير إرادته، وتعثر في أول عام له في المدرسة من دون إرادته. وانتقل للدراسة في المدينة بإرادة (أبوجمال). ونام أول ليلة له في المدينة على سرير جمال بغير إرادته. وفقد حبيبته آسية بغير إرادته، ودخل كلية اللغة العربية بإرادة أستاذ الأدب في المعهد. وسجَّل مدرسة السورجة ضمن خيارات التعيين بإرادة والده. ودرَّس الأدب لطلاب المرحلة المتوسطة بإرادة نافع. وبنى بيتاً في السورجة بإرادة والده. وتزوج زهرة الأهدل

بإرادة أم جمال. وتم الزواج هادئاً بإرادة كبار السورجة الذين تدخلوا لحل النزاع. وقضى شهري الإجازة في المدينة بإرادة سعيد الذي استأجر له شقة في المدينة. وعاد إلى السورجة بإرادة جمال، وأنجب بإرادة زوجته. وغادر السورجة بغير إرادته، ووضع في هذا المكان بغير إرادته. الشيء الوحيد الذي يشعر بأنه فعله بملء إرادته هو اختيار اسم بنته الأثيرة آسية، والساعات التي قضاها قريباً من آسية في ليالي السورجة التي لا تُنسى.

اكتشف عمر أنه قضى أعوامه الخمسين أسيراً للقلق والهواجس تجاه أشياء أكثرها لم يحدث. لم يغير قلقه تجاه الأشياء التي حدثت شيئاً. لو أتيحت له إعادة التجربة، لحاول أن يعيش دون تذكُّر الأمس، أو القلق من الغد، يعتقد عمر أن من يعيش وقد تخلَّص من ذاكرته، ومن توجُّسه هو الذي يعيش بعدد أيام حياته. ويموت مرةً واحدة، يشعر بالحزن تجاه كُلِّ الملذات التي كانت في متناول يده وأهملها، وتجاه كُلِّ الفرص التي سنحت له ولم يستغلها. يحاول تذكُّر لحظات الفرح العابر التي بدَّدها، والبسمات التي اغتالها. لو أُتيح له تكرار التجربة، لما أسِفَ على تأخره عن دخول المدرسة ثلاث سنوات، ولما أخفى كتاب الهجاء عن معلمه، ولن يقف في أي طابور مهما كلَّفه ذلك، من جهدٍ أو عقوبة، ولقبَّل آسية كثيراً، ولضمَّها إلى صدره كثيراً. يعتقد الآن أنه حرمَ نفسه لذة لا تثريب عليه في أن يأخذها أو يمنحها. لو أُتيح له إعادة التجربة، لما عاد إلى السورجة معلماً لصغارها الذين كبروا وركضوا في ميادين

الحياة، وعاد أكثرهم يشير إليهم الناس ويتقربون إليهم، في حين لا يأبهون لأستاذهم غاب أو حضر. كان قرار عودته إلى السورجة رجعياً، أعاده سنواتٍ إلى الوراء بعد أن أخذ بيده أبو جمال نحو حياةٍ أرحب. لو أُتيح له تكرار التجربة لما تزوَّج إلا بمن تقبل بحياة زوجيةٍ لا تُعكرها الهواجس والقلق على مستقبل الأطفال، وصحتهم، وأرزاقهم، وكرامتهم.

لا يرى عمر شيئاً في الحياة يستحق أن يدفع الإنسانُ حياته ثمناً له، ويعجب من أولئك الذين يضحون بحياتهم ثمناً لمواقفهم، والآن لا يرى الحياة تستحق ما يُدفع من جهدٍ حفاظاً عليها، يراها لا تزيدُ عن كونها مجموعةً من الآلام والقيود التي لا تنحل إلا عندما يتخلَّص الإنسان منها، وينزلق في جوف هذا المكان الهادئ الذي يسكنه الآن.

(48)

لَمَّا تذوَّق عمر السورجي لذَّة الهدوء الذي يغمره، تساءل ألا يزال الصخب يملأ الدنيا؟ أمازال العالم يغلي؟ ولمَ لا يركن الناس إلى الهدوء الذي ينعمُ به هنا؟ لقد كان يحتاج إلى هذا الهدوء. ربما لو كان يعلم به لما تأخرَ خمسين سنة، لا بأس فقيمة الهدوء تزداد بقدر معرفته بالصخب الذي يملأُ دنيا المساكين الذين يركضون، ويمكرون، ولا يحوزون ما يكافئ ركضهم ومكرهم، وصراعهم.

هنا لا تصلهُ أخبار الحروب الطاحنة التي تنشب هنا وهناك، تؤججها عنصريات، وأطماع. هنا لا تأتيه الصحف التي توزِع المآسي على الناس الذين يدفعون ثمنها من أقواتهم، لتفتِّتَ أخبارُها أكبادَهم، هنا لا تبث القنوات التي تقرأ مذيعاتها الجميلات المآسي والآلام بابتسامة باردة.

هنا لن تصله فواتير الماء والكهرباء والهاتف النقال، ولن يحتاج إليها. ما أجمل أن تطمئن أن لا أحد يستطيع أن يقتحم وحدتك، ويطالبك بأن تدفع له ما ليس عندك!

متيقنٌ أن لا أحدَ يحسده على هذا المكان، في السورجة كان مضطراً إلى أن يحيط نفسَهُ بالتعاويذ، وينتابه الخوف كلما نظر إليه أحدٌهم، خشية أن يحسدَهُ. كان يخاف الحساد أن يحسدوه على سيارته، أو على بيته، أو على أطفاله الأربعة. كان مضطراً إلى تعويذهم والنفث عليهم في المناسبات، خشية الحسد، لم يكن يخشى على زوجته من الحسد، فالناس يشفقون عليها، من حظها العاثر الذي ألقى بها في طريقه، هو أيضاً يشفق عليها، فحياتها معه سلسلة من المتاعب.

هنا لا أحد يتربص به، شيءٌ كريه أن تشعر بأن هناك من يتربص بك، عالمٌ من الهدوء والظلام. عاشَ عمر يمقتُ القيود ويرسف فيها طوال حياته، والآن لم يعد يشعر بتلك القيود.

يتمنَّى لو أُتيح له أن يبدأ حياته من ليلته الأولى التي فارقت فيها أُمَّه الحياة، وهي تدفعه إليها. لو عاد إلى تلك اللحظة، لتشبَّث برحمِ أُمِّه ولرحلَ معها، فبما أن النهاية واحدة فما جدوى الانتظار، وبما أن هناك موتاً فعن أيِّ حقيقةٍ يبحث.

(49)

رفضت زهرة الأهدل إزالة أجهزة الإنعاش عن عمر، بينما يقول أبوها: إنها مجرد تطويلٍ لأمد معاناته. ينظرون إليه من وراء الزجاج، يعلو صدره ويهبط بفعل أجهزة التنفُّس الصناعي، يتحدَّث سعيد مع الطبيب حول حالة عمر.

– نحنُ عملنا اللي علينا، والباقي على ربنا.

– هل يُعتبر حياً أم ميتاً يا دكتور؟

– ربنا قادر على كُلِّ شيء.

– كن واضحاً معنا يا دكتور، هل نرتب للدفن والعزاء، أم نتعلَّق بالأمل.

– الأمل في ربنا كبير.

– يعني لو أوقفتم الأجهزة يموت.

– طبعاً. بس لازم نديه فرصته في الحياة إلى الآخر، بعدين إنتَ مالك مستعجل؟!

في عصر اليوم التالي كان نافع وسعيد يتلقيان عمر السورجي في مرقده في جبل حالية. لم يكن في تابوتٍ مكسو بالمخمل كما كان يتمنى لجميع الأموات. ولا كان قريباً من قبر آسية والمطوِّع كما كان يتمنى لنفسه. لُفَّ في قطعة قماش أبيض كسائر الناس، وأضجعاه على جنبه الأيمن، ووضعا خلفه كوماتٍ صغيرةٍ من الطين، لتمنع استلقاءه على ظهره، ولم يضعا وسادته الرمادية تحت رأسه.

قريباً كان يشاهد جنازة نجيب محفوظ، ويتمنى لنفسه جنازةً شبيهةً بها، ولكن طقوس التشييع في مصر تختلف عنها في السورجة. كثيراً ما تمنى أن يكون من المشاهير الذين يحظونَ بتشييع الجماهير الغفيرة، يعتقد أن في ذلك حياةً أخرى لهم، شاهد الجماهير تشيع طه حسين، وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ، وأحمد زكي، ومن يومين فقط نجيب محفوظ، يتخيل لو مات نجيب محفوظ في السورجة، كيف سيشيعونه؟ سيجتمعون يتحدثون في المقبرة، بينما يُعدُّ القبر. بنفس المقاسات التي أُعدَّ بها قبر مشعان، وبنفس الطريقة، ثم تأتي الجنازة، فيضعونه في مرقد، ثم يمضون فيقيمون صِواناً لا يُدرى أهو لعرس أم لعزاء! ثم ينتهي الأمر وتضيق دائرة الحزن حتى لا تتجاوز أهل بيته. هذا بالضبط ما حدثَ لعمر السورجي؛ حزنت لموته السورجة يوماً، وبعض أهلها يومين، ثم اقتصر الحزنُ على أسرته، وأقاربه، ثم عاقر الحزنُ زهرة وصغارها، ولم يعد أحدٌ غيرهم يتذكَّر عمر السورجي.

(50)

– بنتي لن تسافر معك إلى المدينة.

– سعدية مراتي، وأم أولادي، ولن أتركها تعيش في السورجة وحدها.

– لن تكون وحدها فأنا معها.

– لقد حذرتك من شراء مزارع أهل السورجة، واتفقنا ألا تشتري مزارع الناس، ولكنك لم تلتزم ما اتفقنا عليه، والآن لم يبق في السورجة سوانا، فكيف نعيش هنا وحدنا.

– أستطيع أن أعيش في السورجة وحدي.

– أما أنا فلا أستطيع، فأولادي يحتاجون المدارس، وعملي صار في المدينة بعد أن أُغلقت مدرسة السورجة، ولم يعد في المسجد جماعة لإمامتهم، ولا قيمة لتجارتي هنا من دون الناس الذين يشترون.

– لن أغادر السورجة إلا إلى قبري.

– يا عم لقد اشتريت بيتاً كبيراً في المدينة، وسأخصص لك فيه شقة، قريباً من سعدية وأولادها، يتعهَّدونك ويرعونك.

– قلت لك سعدية لن تتركني وحدي وتذهب إلى المدينة.

– سعدية لم تعد صغيرة، أولادها وبناتها يدرسون في الجامعة، وهم بحاجة إلى رعايتها، إذا رغبتَ صحبتنا، فأهلاً وسهلاً. أما نحنُ فلا مقام لنا في السورجة، وقد تركها أهلها جميعاً، وأمست بيوتها كالمقابر.

في ضحى اليوم التالي كان سالم المهدي ينظر من نافذة بيته إلى السيارات وهي تقل أسرة نافع وأثاث زوجاته مغادرة السورجة. حاولت سعدية إقناعه بمرافقتهم إلى المدينة. قابل طلبها بالإصرار عليها أن تبقى معه في السورجة، أوقعها طلبه في مجال الدفاع عن نفسها وقرارها، عوضاً عن محاولتها إقناعه برفقتهم.

– كيف أترك السورجة بعد أن تحقق حلمي الذي عشتُ أنتظر تحققه طول عمري، لقد أصبحت كلُّ مزارع السورجة لي، وبيوتها، وميادينها، كلُّها كلُّها، ليس لي فيها شريك، حتى أملاك نافع ستكون من نصيبي، ابقي معي يا بنتي واتركي نافع، الآن أصبحت السورجة ملكنا؛ مجنونٌ من يترك هذا الملك، ويرحل ليحبس نفسه في شقةً في المدينة.

– يقولون: «الجنة من غير الناس ما تنداس» فما قيمة السورجة من دون الناس يا أبي؟!

– وماذا أخذنا من الناس إلا وجع الرأس يا بنتي.

– لا تتخلي عني وتذهبي مع نافع، ابقي معي يا بنتي أنا أبوك.

– نافع زوجي، وأولادي وبناتي في الجامعة، لا بدَّ أن أرافقهم.

– إذا تركتني فلا أنتِ بنتي ولا أعرفك.

لم تكن فكرة بقاء سعدية مع سالم المهدي فكرةً معقولة، ولذلك فقد اتخذت سعدية القرار منذ قال لها نافع: إذا قررت البقاء في السورجة، فستأتيك ورقة طلاقك. لا تستطيع سعدية تصور الحياة في السورجة التي لم يعد يسكنها أحدٌ سوى سالم المهدي. كانت حزينةً باكيةً، بخلاف زوجتي نافع الأخريين اللتين كانتا تتوقان إلى حياة المدينة. تحاولان مواساة سعدية. اضطرتا إلى إخفاء فرحتهما بالرحيل، مراعاةً لمشاعرها، في حين تؤكدان لها أن والدها سيلحق بهم قريباً.

بقي سالم المهدي في السورجة وحيداً، يقضي نهاره يذرع طرقات السورجة، ويجلس على سطوح البيوت المهجورة، ويدخل الغرف التي لم يسبق له أن دخلها، فيجد سَقَطاً من المتاع الذي أهمله الراحلون فيحمله إلى بيته. عندما يكسو الظلام السورجة يكون قد أعدَّ له ما يأكله، فيقضي المساء على سطح بيته، يرقب السكون، وأصوات الهوام، حتى يغلبه النوم فينام.

بدأت الوحشة تحيك خيوطها حوله، يتأمَّل المزارع التي آلت

إليه بأساليب أكثرها غير مشروعة، لم تعد ملكيتها تعني له شيئاً ذا قيمة.

يرفع صوتّه بالأذان كلما حان وقت الصلاة ليجد أُنْساً بسماع صوته، فليس هناك مسوِّغ لرفع صوته غير الأذان والتلاوة في الصلاة الجهرية. أما الحيوانات فهي تتحرك بحرية. تظهر حتى في النهار، تتصارع على مرأى من سالم المهدي، تملأ أصواتها ليل السورجة، وهو يحمل بندقيته ولا يصوبها نحوها.

يقضي الساعات يرقب الطريق المؤدي إلى السورجة، ينتظر ابن نافع الذي يسمونه (سالم الصغير)، تمييزاً له عن جده، يأتيه من المدينة بين الحين والحين محمَّلاً بما تعده له سعدية من طعام، ومعلبات وأجبان وألبان، يقتات عليها، حتى يأتيه مرةً أخرى.

زاره نافع مراتٍ بعد أن رفض مقابلة سعدية عندما جاءت برفقة ابنها سالم. حاول إقناعه بمرافقته إلى المدينة، ولكنه رفض الخوض في هذا الموضوع. شعر نافع بأسى شديد وهو يرى الحال التي آل إليها سالم المهدي، من البذاذة في ملبسه، وبقايا شعر رأسه الأشعث الذي التقى بشعر لحيته البيضاء، وحواجبه الثائرة.

طلب نافع من (أبوجمال) أن يصحبه إلى السورجة، لإقناع سالم المهدي بمرافقتهم إلى المدينة، فاعتذر أبو جمال، بأن صحَّته لا تُساعده على السفر، واقترح أن يصحبه سعيد ليقوم بهذه المهمَّة.

استقبلهما سالم المهدي بذهول وصمت مخيف، لا ينظر إليهما وهما يكلمانه، لم يتمُّ سعيد كلامه بعد، عندما قام سالم المهدي وتركهما، قاما على أثره، وهو يخرج من البيت ويسير في طرقات السورجة، تبعاه قليلاً، ثم تركاه، وهما يشعران بقلق شديد تجاه حالته..

قال نافع وهما يجلسان على سطح بيت نافع ينتظران عودة سالم المهدي: يبدو أن الوحدة قد أثرت في عقله.

– سبحان الله لا أحد يستطيع العيش بمفرده، فما سمي الإنسان إنساناً إلا لأنه يأنس بالناس ويؤنسهم.

– هو أكثر من حرص على تهجير أهل السورجة، بشراء مزارعهم، ومساعدتهم على مغادرتها، وقد حذرته من ذلك فأعماه الطمع ولم يسمع كلامي، وها هو يدفع الثمن.

– ليس سالم الوحيد الذي تطرّف في أحلامه وطموحاته.

– ماذا تقصد؟

– أقصدك أنت وعمر وجمال! كلكم ذلك المُنبَت الذي لم يبق ظهراً، ولم يقطع أرضاً. تطرّفت في تدينك، وتطرّفك هو الذي جعلك فيما بعد تتنازل عن مواقفك واحداً تلو الآخر. وجمال تطرّف في تحرره وانفلاته من القيم حتى أصبح كما تعرف رهيناً للمصحة النفسية. وتعرف كيف كانت حياة عمر الذي تطرّف في هواجس الموت، والخوف من المستقبل، فلم يعش حياته، ولم ينجُ من الموت الذي عاش يهجسُ به.

إبراهيم مضواح الألمعي

- السعودية ١٩٦٩
- يعمل في مجال التربية والتعليم

من إصداراته:

- قطف الأشواك (قصص)
- على رصيف الحياة (قصص)
- التابوت (قصص)